الطريق الى شاريتيه

فـراس عبـد الـحسيـن

روايـة

الكتاب: الطريق إلى شاريتيه
المؤلف: فراس عبد الحسين
التصنيف: رواية
تصميم الغلاف: الياس سلام
التنسيق الداخلي للكتاب: رياض الصالح
ISPN: 978-9922-9503-8-9

الطبعة الاولى
٢٠٢١
مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
العراق – محافظة بابل – الحلة – شارع أربعين
جوال: **009647831010190**
info@ebjed.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الانترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

الطريق إلى شاريتيه

رواية

فـراس عبـد الـحسيـن

أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
Ebjed for Translation, Publishing & Distribution

الأحداث كلها قد حدثت بالفعل وما زالت تحدث، منغمسةً بوحي خيال الكاتب،

وأيّ تشابه مع أسماء شخوص الرواية قد يكون من باب الصدفة لا أكثر.

المؤلف

سنصبح نحن يهود التاريخ ونعوي في الصحراء بلا مأوى.

مظفر النواب

لقد حان وقت النهوض، فالساعة تشير إلى التاسعة صباحاً ولم يبقَ من الوقت سوى ثلاث ساعات للوصول في الموعد المحدد لأن هاشم دقيق بمواعيده دائماً. ارتديت بنطال الجينز وبلوزتي المارونية، فتحت الكتاب القديم الصغير ذا الأوراق العتيقة، قرأت بعضاً من كلماته قبل أن أضعه في جيبي مع الرسالة الواردة بالبريد الإلكتروني. وضعت الوشاح الأزرق حول رقبتي أمام المرآة، اتضحت ملامح وجهي قد تغضّن وبرزت التجاعيد الصغيرة والكبيرة عليه وأصبحت أكبر من سني بكثير، كأن شمس عمري قد أشرقت للتو فوق ليل شعري الحالك وحولته للون الرمادي جراء ذلك المرض اللعين الذي أصابني في الوقت الذي كنت أتوقع أن الحياة قد ابتسمت لي أخيراً، وسوف أتمكن من تعويض سنوات العذاب والشقاء التي واجهتها. لكن هيهات عليّ مواصلة الحرب والانتصار في المعركة الأخيرة. وضعت الكمامة المزعجة التي تشعرني بالاختناق على فمي وأنفي ثم ارتديت حذائي الرياضي على عجالة قبل أن أخرج وأغلق باب الشقة بهدوء.

الشمس ساطعة هذا الصباح على غير عادتها. نسمة هواء عذبة داعبت مسامات وجهي أشعرتني ببرودة خفيفة نشطت دورة جسدي الدموية، امرأة عجوز تمشي على مهل تمسك بحبلٍ طوق رقبة كلب نشيط يسحبها بقوة، وطفلة جنب أمها تجر حبل قطتها المُسنّة وتمشي خلفها على مهل، بعض المركبات تمر مسرعة والجميع يحاولون الهرولة للوصول في أقرب وقت كأنهم روبوتات صنعت لتؤدي واجبها بالعمل، فكل تأخير قد يؤدي لخصم مبلغ من المال يؤثر على دخلهم ويمنعهم عن سداد الفواتير، لم يعد يشعر أحدنا بالآخر، الوقت الذي يحاول الإنسان استغلال كل ثانية فيه أفقدنا معه القدرة على الترابط فلم نعد كائنات اجتماعية كما يفترض عنا أن نكون، تحول الوقت إلى سيف قاطع كبير بوسع كرتنا الأرضية يدور باتجاه عقارب الساعة والجميع يركض أمامه ومَن يتوانى يموت. ذلك النظام العجيب الذي فرض سطوته على الجميع وتمكن من إخضاعهم لقوانينه وجعلهم وسط دوامة تبدأ من بدايات الصباح ولا تنتهي بحلول المساء.

عبرت مع آخرين بعد رؤية الضوء الأخضر. بعض السوّاق يحدقون بالضوء الأحمر وساعاتهم، كأن تلك الثواني التي منعتهم من تكملة الطريق لا يمكنهم تعويضها، حتى وصلت حديقة بأشجار ظليلة تقف مكانها منذ عقود ولن تشعر بذلك الوقت الذي يمر على الناس مثل لمح البصر، بعيدة عن أيدولوجيات المجتمع وتحولاته على مر الأزمان، تنفست دخان الحرب والمصانع، تأثرت ببعض شظايا القذائف لكنها استمرت بالنمو ولن يتغير من شكلها أو لونها شيء. لعل هندنبورغ، أدولف هتلر، جوزيف ستالين، إريش هونكر، قد مروا تحت أغصانها في يوم ما كما تمرأنجيلا دوروتيا ميركل الآن. أشجار الزان والتنوب والصنوبر والبلوط كلما مررت بينها وغطت أوراقها أشعة الشمس فوق رأسي عدت بذاكرتي الى الماضي إلى غابات

مقدونيا، رجعت إلى تلك الأيام التي عانيت فيها. إلى أليكس وعوض، شاهين النصاب، جسر سكة القطار الضيق، الزورق المطاطي، الجوع، السجون، تمارا التي افتقدها كثيراً. أعادتني إلى ذلك البحر الذي واجهت الموت فيه، إلى ذلك الرعب والقلق.

أقلقتني كثرة أعداد الغرقى في البحر وأفزعتني الأخبار التي تبثّها القنوات الفضائية عنهم، أحسست بالرعب بعدما عرفت أن الزورق المطاطي المخصص لعشرة أشخاص يضعون على متنه ثلاثين، ويتطوع لقيادته أحد الهاربين ممن لا يملكون المال بعد اتفاقه مع المُهرّب على الوصول إلى سواحل اليونان دون مقابل، لتجد العوائل نفسها وسط فم البحر الواسع المفتوح. تلك المشكلة الوحيدة التي لم أجد لها حلاً طوال فترة تفكيري بالهرب.

أخذت زوجتي أم علي وبقية الأهل يكثرون من الصلاة وقراءة الأدعية والتراتيل قبل الخوض في غمار البحر ومخاطره، حتى تحولت الشقة أشبه بجامع أثناء صلاة الجماعة. في الساعة الثامنة مساءً حملت الحقائب مع العائلة فقد حان موعد انطلاق الرحلة، وزعتهم على ثلاث سيارات أجرة لكي لا نثير الانتباه والتقينا في الحديقة العامة، رأيت بعد الوصول باص مرسيدس صغير لنقل البضائع وسط ظلمة الليل متوقف بجانب الحديقة الأيسر، اقتربت وتأكدت بأنه المقصود بعد قراءة لوحة التسجيل لكنه خالياً ولا يقف بقربه أحد، ما إن فتحت الباب الخلفي حتى سقط رجلان إلى الأرض، توضحت عشرات الرجال والنساء والأطفال متكدسين فيه فوق بعض مثل كومة لحم. رفضت الركوب واتصلت بالمُهرّب: تعرف أن عائلتي أحد عشر نفراً كيف تطلب حشرهم في سيارة تغص بالبشر.

- هكذا يتم التهريب فلا يمكنني توفير سيارة خاصة لكَ في هذا الوقت الحرج، اركب معهم أرجوك فقد أخّرت الجميع.
- إذا وضعت العشرات في باص فكم ستضع في الزورق!
- الوضع مختلف صدقني؛ اصعد وسوف نتحدث بالأمر لاحقاً.
- لا يمكنني ذلك وأعتبر الاتفاق ملغى بيننا من هذه اللحظة.

عدت مع عائلتي إلى الشقة في جو مشحون وأعصابي مشدودة مما حصل، لأن عملية التهريب موت مؤجل وخصوصاً في البحر، اتصل أبو عبدو: أعتذر عما حصل لقد تم الاتفاق على تهريب عائلة في اللحظة الأخيرة دون علمي، سوف أقوم بتأجير مركبة خاصة في أقرب وقت لذا يجب أن تكون على أهبة الاستعداد.

في اليوم الحادي والعشرين من شهر آذار وقت الغداء أبلغني بضرورة التهيؤ للسفر بعد ساعة، نزلت واستقليت سيارة أجرة تتسع للعائلة فطلب رقم لوحة تسجيلها وتحدث عبر الهاتف مع السائق ودله على المكان حتى أوصلنا إليه، قبل نزولي رأيت رجلاً يقف في الشارع المؤدي لمخزن يحمل ورقة بيده وينظر للوحة السيارة ارتعبت منه فسألت المُهرّب عنه وقال: عليك اللحاق به دون خوف لأنه من اتباعي. سمعت صافرة من الرجل قبل إنهاء المكالمة وهو يلوّح

بيده من بعيد، أخذنا لمخزن كبير بابه موارب يحتوي مكائن خياطة وجلود ملونة، أثاث قيد التغليف، وكراسي سيارات مختلفة، دخلنا غرفة صغيرة في آخره كانت تغص بالناس عرب سوريين، فلسطينيين، مصريين، وصل بعد مدة شابان وبعدهم عباس أبو غسان وعائلته، والرجل التركي واقفٌ في الباب نهضت وقلت له: أريد جلب الطعام وحليباً للأطفال قبل السفر.

- قمنا بتهيئة كل شيء قبل وصولكم.
- متى نخرج أذاً!
- لم يبقَ سوى شخصين ويكتمل العدد.

وصل اثنان عراقيان تعرفت إليهما وتبادلنا أطراف الحديث، علاوي البصري طباخ وسنان خباز في مطعم يعملان منذ خمس سنوات في أنقرة، وهما ينتظران موعد مقابلة الأمم المتحدة طوال هذه المدة دون جدوى، فقررا الهرب وتمكنا من جمع أربعة الأف يورو، اعطيا للمُهرب ألفين ويخافا ألا تكفيهما البقية للوصول إلى أوربا. وصل الطعام وتجمعنا معاً لتناوله وحصل تعارف بين العوائل "حشر مع الناس عيد"، كانت بينهم أمرأه فلسطينية تسكن في سوريا ابنها صبي ذو ثلاثة عشر عاماً وابنتها بعمر ثمان سنوات وطفلة صغيرة اسمها روان. جميعهم يرتدون النجادات ما عدا الطفلة عرفت بأنها لم تجد واحدة في السوق على حجمها، أخذتها من حضن أمها ولاعبتها فضحكت بصوت عالٍ حتى أضحكت الجميع بالرغم من حالة الخوف والترقّب والقلق.

أحصيت الموجودين فكانوا ستة وثلاثين شخصاً وثمانية أطفال، كان قلقي مضاعفاً على بتول زوجة ولدي حمودي لأنها في الشهر الثالث من الحمل فقد قررنا السفر بعد زواجهما بيومين. شعرت ببعض الأمان والاطمئنان والاستقرار بعد التعارف، حدثتهم جميعاً - لقد أصبح بيننا زاد وملح كما يقول المثل العراقي، وأنتما يا علاوي وسنان منذ اليوم تبقيان معي طوال الرحلة لأنكما مثل ولديّ. ولا تحملا هم المال سوف أساعدكما متى ما احتجتما لذلك، أريدكما سنداً لي وسأكون عوناً لكما، علينا التعاون فيما بيننا للخروج من هذه المحنة. دخل الرجل بعد ذلك وقال: قفوا في الطابور مع تجهيزاتكم فقد وصلت الباصات ولا تنسوا النجادة لأنها قد تنقذ حياتكم بعد قليل، اخرجوا على شكل مجموعات من ثلاث أشخاص ولا داعي للخوف والارتباك، يسافر مثلكم العشرات من هذا المكان كل ليلة.

انطلقنا بعد ركوب الجميع، شغلت المركبات أضواءها بعد سدول الليل، أزحت الستارة فشاهدت منطقة جبلية غريبة وأشجاراً، كل شيء يسير بشكل طبيعي وعلى خير ما يرام، بعد مدة أنعطف السائق بشكل مفاجئ وبسرعة كبيرة عن الطريق العام إلى درب صخري وعر صاعداً الجبل، أخذ الركاب يتقافزون عن مقاعدهم وسقط بعضهم وسط أرضية المركبة من شدة العكر فحشر السائق الباص بين أشجار عالية وأحراش كثيفة، توقف ثم نزل ووضع أحجار خلف إطاراتها وبقينا ننتظر.

سأل عباس السائق باللغة التركية: ماذا حصل؟

- هناك نقطة تفتيش على الطريق العام.
- وكيف عرفت؟
- أمامنا مركبة صغيرة تؤمن الطريق مسبقاً.
- وكيف أخبروك بذلك؟
- بواسطة هذا الجوال يا حاج.

نزل سنان والبصري معاً للتدخين بعد أن أوصاهم السائق بالجلوس بين الصخور العالية وإخفاء جمرة سجائرهم عن النظر. لحقت بهما فوجدتهما قد مزقا جوازات سفرهما وملامح الوجع وبقايا دموع الألم تغطي وجنتيهما. قال البصري: لقد مزقنا كل ما يربطنا ببلد اسمه العراق وتخلينا عن وطن لا يحترم أبناءه ويجعلهم تائهين يكتوون بعذاب الغربة والذلة بين الدول.

- كيف تقومان بمثل هذا الفعل الشنيع أن رفض البلد والتبرّؤ منه ليس بتمزيق الجواز!
- نحن مواطنون بلا وطن، نعمل منذ سنوات بمهن شاقة من طلوع الفجر وحتى حلول المساء مثل العبيد لنجمع ما نستطيع الفرار به. وبلدنا يغص بالخيرات.
- نعم. إنه يفيض بالخير لكن خيره لغير أبنائه دائماً كأن شياطين الأرض اجمعهم تحالفوا على تدميره منذ وجوده.
- ها أنت تؤكد ما نقول!
- لكننا سوف ندخل حدود بلدان غريبة عديدة وسنكون بأمس الحاجة إليه في وقت ما. دخنّا السجائر ورجعنا للحافلة.

بقينا ننتظر لمدة ساعة حتى أخبرني السائق بأن علينا الانطلاق فوراً لأن نقطة التفتيش قد انسحبت للتو. ركب الجميع ورجعت المركبتان للخلف لأنه طريق فرعي ضيق لا يتمكن السائق من الاستدارة فيه، وبعد الرجوع لمسافة ضئيلة وسط الظلام الدامس وأغصان الأشجار الكثيفة التي تحجب الرؤية، صرخ السائق فجأة ثم توقف ونزل راكضاً باتجاه الباص خلفه، كان قد انحرف صوب الوادي والإطارات الخلفية تدلت في الهواء وأخذت تنسحب ببطء وأوشكت على السقوط. فهاج صراخ النساء داخلها، صرخت بهن: لا داعي للخوف والذعر، لن ندعكم تسقطون سوف ننقذكم. أوصيت الجميع بالتقدم للأمام والجلوس جنب السائق، حاولت فتح الباب بمساعدة الآخرين ولم أستطع، كانت نظراتي على السيارة ومحاولة منع وقوعها وتارة أخرى صوب الشارع خوفاً من أن يرانا أو يسمعنا أحد، دفعنا بقوة حتى تمكنا من رفعها وإرجاعها للدرب بعد عناء ومشقة.. لحظات مرت كأنها سنوات.

حل منتصف الليل والباص يواصل المسير حتى وصلنا سفح جبل. توقف السائق وقال: ستجدون شخصاً بانتظاركم خلف تلك الصخرة، اتبعوه ليوصلكم إلى الساحل وانزلوا بحذر

فأمامكم منحدر حاد، احترسوا من السقوط فيه، انبطحوا فوراً إذا رأيتم ضوء سيارة قادم باتجاهكم ولا تصدروا صوتاً أو حركة. ترجم أبو غسان ما أوصاه السائق وتولى زمام المبادرة بالنزول وهو يوصي النساء بالحذر، كان عباس شاباً جميلاً حليق الراس، يحمل طيبة ورجولة الفلاحين، لكنه حازم في عدة مواقف وصارم وقت المصاعب والمحن.

أخذ البصري إحدى الحقائب من كتفي فقلت له: عليك الحفاظ عليها لأنها تحتوي شيئاً مهماً لا أريد فقدانه والكثير من السجائر دخّن منها ما شئت. فابتسم وهو يمشي أمامي دون أن ينطق بكلمة. بعد مسافة من المشي بين الأشجار وسط الظلام رأينا ضوء سيارة قادم باتجاهنا من بعيد، أستلقى المُهرّب وصرخ بصوتٍ عالٍ: انبطحوا.. انبطحوا بسرعة. فوقعت رجلي المصابة بطلق ناري على حجر وشعرت بألم شديد لا يحتمل، خفت معه من عدم قدرتي على مواصلة المشي وإكمال الرحلة، سمعت صرخة بتول ثم بكاءها بعد انبطاحها فوق صخور ناتئة مع خوفها من تلك الأجواء المرعبة بين الأحراش، جلست بجانبها وحدثتها بهدوء حتى اطمأنت وصارت على ما يرام.

نزلت ماشياً خلف المُهرّب، فوق ظهري حقائب ثقيلة وتحت أقدامي أحجار صلدة حتى وصلنا إلى أرض مستوية وسط الغابة. شممت رائحة البحر وسمعت صوت أمواجه البعيدة، طلب منا الجلوس وأخذ قسطاً من الراحة ثم أحضر من بين الأحراش زورقاً مطاطياً ومحركاً مع منفاخ يدوي وأوصى الرجال المشاركة بنفخه، فتناوب الجميع على النفخ لغاية الساعة الثانية صباحاً. ارتحنا قليلاً، أكلنا بعض الطعام وأرضعت الأمهات أطفالهن. كانت تجلس بقربي المرأة الفلسطينية وأولادها، تناولت الطعام معنا وأكلت الطفلة القليل من البسكويت مع الماء، رأيتها مرتبكة فقلت لها: لقد أصبحتِ واحدةً منا لذا عليكِ الاطمئنان وعدم الخوف، سوف نركب الزورق ونصل شواطئ اليونان بسلام.

- أشعر بالخوف لأن عبور البحر أخطر ما في رحلتنا.
- نعم هذا صحيح. لكن المسافة قصيرة والوقت لا يتجاوز الساعة.

امتلأ الزورق بالهواء فأخذت المحرك وربطته في مكانه برفق. قال: مَن منكم يتقن قيادته؟ ها قد وصلنا إلى حيث النقطة الفاصلة التي أخشاها في الرحلة، يتوجب علينا دعم السائق وتشجيعه لحين الوصول بسلام إلى بر الأمان، فأرواح الجميع معلقة برقبته. نهض شاب وقال: اسمي حليم مهاجر مثلكم كنت أعيش في قرية سورية على ساحل البحر وتعلمت قيادة مثل هذا الزورق بسن العاشرة ولم يأخذ أبو عبدو مني المال بعد الاتفاق على قيادته وإيصالكم بسلام. سوف أبذل قصارى جهدي لتحقيق ذلك. لكن لدي طلب وحيد عندكم. إذا تم إلقاء القبض علينا من قبل خفر السواحل التركية أو اليونانية لا سامح الله أرجو ألا تبلغوا عني بأني السائق، لأنهم سوف يعدونني مُهرّباً ويسجنوني لسبع سنوات بعد مصادرة أموالي ومنعي من دخول تركيا مجدداً. فهل أنتم موافقون؟

- نعم بالتأكيد. كن مطمئناً لن نتخلى عنك مهما حدث.

حليم شاب سوري يحمل عنفوان الشباب، أبيض البشرة، مربوع ضخم البنية، أشقر الشعر، قوي الشخصية يتحدث بصوت عالٍ واثقاً من نفسه وجدياً في كلامه، تكلمت معه قليلاً ورفعت من معنوياته، ثم حملنا الزورق صوب الساحل فطلب حليم وضعه في الماء لمدة ساعة حتى تأكدنا أن كل شيء على ما يرام. ركبت أولهم ولحقني الجميع حتى امتلأ فجلست بقية النساء والأطفال وسطه.

النـزول إلى البـحر

بعد ركوب الجميع قال حليم: توجد أمامنا شباك صيادين على مسافة قريبة من الشاطئ وأوتادها من الحديد الحاد، لذا سوف أقود على مهل والذي يجلس في المقدمة يقع على عاتقه مراقبة الماء جيداً وينبهني فور رؤيتها لتغيير اتجاهي قبل وقوع الكارثة. فكما ترون البحر خالٍ أمامنا ولا يوجد مَن يمكنه إنقاذنا. ثم شغل المحرك. قرأ الجميع سورة الفاتحة وبعض آيات القرآن ومختلف الأدعية. ثم انطلقنا إلى حيث المصير المجهول وسط هدوء البحر وسكونه التام في ظلام يداعبه ضوء القمر الخافت مثل فنار عالٍ يرشدنا لبر الأمان. تمكنت من رؤية الشباك وأوتادها البارزة واستطاع تجاوزها بصعوبة وتخطينا مرحلة الخطر الأولى بنجاح. اعرف أن مدة الإبحار لا تزيد عن ساعة حسب سرعة السائق التي يحددها هدوء الموج، ونحن وسط البحر شاهدت من بعيد ضوءاً قوياً لامعاً فوق جزيرة فشعر الجميع براحة تامة، ثم لمحت بعد مسافة قصيرة سفينة كبيرة راسية على جهة اليمين تحمل العلم التركي تابعة لخفر السواحل. واصلنا الإبحار بهدوء وتمكنا من تجاوزها دون رؤيتنا حتى تلاشت عن الأنظار.

اقتربنا من المياه الإقليمية لليونان، ورأيت جزيرة مثل جبل طافٍ فوق الماء تشُع منه الأنوار باتجاه السماء، يبدو أن الرحلة قد أوشكت على نهايتها بعد نصف ساعة من الإبحار. الأمور كلها تسير على ما يرام، لمحت مع ضوء القمر الخافت الأمل يرتسم على عيون الجميع بقرب الوصول، حتى داهمنا فجأة ضوء يعمي الأبصار من جهة اليسار وإذا بسفينة قريبة منا تحمل علم اليونان. ارتبك الجميع ولا نعرف ماذا نفعل وكيف نتصرف، انطفأ بعد دقيقة وسط صمت مرعب وترقب، سطع مرة أخرى واقترب نحونا، تذكرت كلام المُهرّب فصرخت بحليم: افتح المحرك وارميه في البحر بسرعة. حدث صخب شديد بعد ذلك السكون وتعالى الصراخ من كل جانب، بعضهم يصيح لا تفتحه اتركه في مكانه لنصل به الى الشاطئ والآخر يعيط ارمه على الفور. وسط تلك الضجة وذلك الخوف والارتباك أخرج أحد السوريين سكيناً من جيبه ينوي ثقب الزورق وإغراقه، ففقز ولدي علي نحوه ووضع المدية على رقبته وصرخ بأذنه: سوف أطعنك في رقبتك قبل محاولتك ثقبه فإن كنت شاباً يستطيع العوم فمعنا أطفال لا يرتدون النجادات ونساء لا تعرف السباحة. في ذلك الوقت الحرج نهضت وركضت باتجاه المحرّك فتحته ورميته في الماء. صرخت بالجميع: دعوني أتحدث معهم بالإنكليزية عسى أن أتمكن من إقناعهم بما نريد. وصلت السفينة بالقرب منا فتأرجح الزورق بتأثير أمواجها العالية ودخل الماء وسطه، أخذنا نجمعه بأيدينا ونرجعه للبحر دون فائدة. بقيت السفينة تدور حولنا فصحت بصوتٍ عالٍ: هل يتقن أحدكم الإنكليزية!

- من هو سائق بينكم؟

- أنه مُهرب قفز في الماء بعد رؤيتكم وعاد سابحاً الى تركيا.
- أين محرك الزورق؟
- فتحه بيده ورماه في البحر قبل هروبه.

تركونا واتجهوا صوب المياه الإقليمية التركية. كأنهم صدقوا كلامي وأخذوا يبحثون عن الرجل بواسطة الأضواء الكاشفة بكل اتجاه، ثم عادوا بعدها: لا نقدم لكم المساعدة حتى تموتوا وسط البحر إذا لم تخبرني مَن السائق.

- لقد قفز بالبحر بعد رؤيتكم؛ أقسم بالله.

انتبهت لهم كانوا يحملون كؤوس مليئة بالعرق يتحدثون بصعوبة ويترنحون على سطح السفينة.

- كم عددكم؟
- ست وثلاثون شخصاً.
- هل أنتم عوائل؟
- نعم
- دعني أرى الأطفال إذاً.

سلطوا ضوء المصباح الكبير نحونا ورأوهم جالسين في الوسط وحملنا بعضهم ليتمكنوا من مشاهدتهم. كان أحدهم يحمل كاميرا ويصور ما يجري والآخر جاء بخطاف طويل وحاول ثقب الزورق، قفزت وبعدت الخطاف بيدي حتى جرحني وصحت بصوتٍ عالٍ: لماذا تريد إغراقنا أين إنسانيتكم معنا الكثير من الأطفال، دعونا نعود الى تركيا إذا لم تسمحوا لنا بالوصول إلى سواحلكم. أرجوك.

- يجب ثقبه فهذا من مصلحتكم.
- تريد موتنا لمصلحتنا!

قفز أحدهم من السفينة ورمى الآخر إليه حبل سميك سحبه بيده وسبح باتجاهنا حتى وصل وصعد بجانبي ثم قال: تمسّكوا بالحبل جيداً سوف نسحبكم للساحل. وقف خلفي ابني علي وسنان وحيدر وحمودي وعلاوي. كانت السفينة تقف أمامنا بالعرض ومقدمة الزورق باتجاه اليونان مثل الحرف (T). تمسكت بالحبل الثقيل وتشبث به الرجال خلفي ما عدا السوريين لم يحركوا ساكناً وكأن الأمر لم يعنِهم، رأيتهم يتوارون عن الأنظار بين النساء مع نظرات الخوف والهلع من تأثير الصدمة. الشرطي بجانبي كان ثملاً يتمايل مع الموج ويقف على قدميه بصعوبة، تحركت السفينة بسرعة وجرت الحبل معها فأصبح مشدوداً وضرب يدي اليسرى من تحت الإبط وقذفني مع الشرطي للبحر. غطست وسط الظلام في الأمواج المالحة ولم أتمكن من رؤية شيء في تلك اللحظة لمحت نوراً وسطه وجه أمي. وأخذت تتوالى بعده صورة أبي وهو يناديني. ثم أخي الشهيد رعد ببدلته العسكرية. عرفت بأنها لحظات حياتي الأخيرة، فكرت

بعائلتي وماذا سوف يفعلون بعد تركهم وسط هذه المحنة؛ دفعني الموج الى أسفل الزورق رفعتني النجادة واصطدم راسي بقاعه الصلب فدخل في جوفي الماء المالح وكدت أغرق، أطفو فاستنشق القليل من الهواء قبل أن أغطس ويقذفني التيار بعيداً؛ اتضح أن هنالك شخصان بعيدان يسبحان باتجاهي وسمعت صوت علي يصيح بعد وصوله: أبي.. أبي هل أنت بخير؟

- نعم بخير. ما الذي انزلك للبحر! "رددت بصعوبة"
- الحمد لله. سقطت معك وسنان قفز خلفنا لإنقاذنا.

صرخ سنان: النجدة.. أنقذونا.. أنقذونا. ولا يتمكن أحد من سماعنا وسط تلك الضجة. شاهدت الشرطي من بعيد يسبح عائداً للسفينة ونحن نصرخ طالبين المساعدة دون فائدة، اسمع الضجيج من صراخ وبكاء النساء والأطفال وسط الظلام والزورق يرتفع عالياً وينخفض مع الأمواج، وهم يحملون الماء ويرمونه للبحر. وسط تلك الثورة العارمة والفوضى لمحت علياً يبكي بألم وأخذ نشيجه يتصاعد فقلت له: لماذا تبكي يا ولدي؟ كن شجاعاً أقوى من الظروف.

- بابا ابني ياسر راح.
- ماذا تقول! صرخت بوجهه بصوت عالٍ.
- رأيته عندما سقط وابتلعته الأمواج.
- هل أنت متأكد!
- نعم لقد رأيت طفلاً وقع في البحر أثناء سقوطي قبل أن يدفعني التيار بعيداً.
- ربما يكون طفلاً آخر.
- لا هو ياسر. أنا متأكد من ذلك.

بكينا معاً وسط البحر حتى امتزجت دموعنا بأمواجه. شاهدت زوجتي في الزورق تولول وتلطم على رأسها والشرطة يحاولون إيصال النساء لمتن السفينة والآخر يصور الموقف بالكاميرة. واصلت العوم بصعوبة يرفعني الموج وينزلني ويدفعني بعيداً وأحاول من جديد حتى وصلتهم بشقّ الأنفس، تمسكت بمؤخرة السفينة محاولا الصعود وضعت قدمي على شيء وشعرت بضربة قوية وألم شديد كأن ساقي قد بُترت كانت مروحة المحرك تدور بشكل خفيف مع الموج بالرغم من إطفائه. صرخ الشرطي: ابتعد عن محرك السفينة يا رجل تعال من الجانب الآخر بسرعة ثم رمى حبل وسحبني للأعلى. غطى الماء المالح عيناي وحجبني عن الرؤية بوضوح، امرأة وجهها أزرق مسود واقفة تلطم على رأسها، ما إن شاهدتني حتى صرخت بوجهي بصوتٍ مبحوح: روان بنت الفلسطينية غرقت بالبحر! انعدمت عندي الرؤية وسقطت على ظهر المركب، صحوت على صوت البكاء والعويل وأخذت ألطم على رأسي وأبكي معهن. شاهدت الأطفال يبكون من هول الصدمة بقربهم ابنتي سرى مع ابنتيها وجهها مزرق احتضنتني بقوة وهي تبكي وتقول: بابا توقعناك ميت. بتول ممددة ماسكة ببطنها وتصرخ من الألم. عرفت أن السوريين قاموا بدوسها أثناء محاولة صعودهم على ظهر السفينة وعند

رؤيتهم من قبل خفر السواحل، كانوا كلما وصلوا إلى السطح ضربوهم وركلوهم بأرجلهم وأرجعوهم للقارب ولم يسمحوا لهم إلا بعد صعود الجميع.

ادخلوا النساء والأطفال الى بطن السفينة وتركوا الرجال على ظهرها. جلس أبو غسان بجانبي وقال: بعد سقوطكم أنت وولدك وسنان والبصراوي الذي يحمل حقيبتك في البحر. قاطعه البصري: أصبحت الحقيبة المعلقة برقبتي ثقيلة في الماء فسحبتني لعمق البحر وكادت أن تغرقني، حاولت التخلص منها ثم امتنعت لأنها ربما تحوي ذهبكم وأموالكم وأوراقكم المهمة. لكن دعني أخبرك بصراحة كان فيها سجائرنا التي أدخن منها فلن أتخلى عنها لو قتلتني. ضحك الجميع وسط الخوف والتعب والهلع لكني تذكرت البنت الفلسطينية فسالت دموعي. قلت للبصري: أعطني الحقيبة ففيها شي أهم من الذهب. تفقدت أغراضي وكان ذلك الكتاب بينها، فطمأنيت.

- كيف سقطت تلك الطفلة الجميلة، لماذا تركتموها تغرق؟

أكمل أبو غسان كلامه: أهتز القارب بقوة بعد سقوطكم فنهضت المرأة الفلسطينية وهي تحمل طفلتها تنوي الوصول لولدها وابنتها خوفاً عليهم، فأفلتت الطفلة من يدها وسقطت في البحر، فقفز حيدر وراءها التقطها ورماها للزورق، حاولت الإمساك بها ولم تستطع فابتلعها البحر واختفت بسرعة، غطس خلفها وبحث عنها ولم يجدها كأنها فص ملح وذاب في الماء.

- يا ألهى روان. أين أمها الآن؟
- مغمى عليها تصحو لتبكي وتنوح ثم يغمى عليها من جديد.
- يا ويلي؛ لماذا يا إلهي.

أمر الشرطي بقية الرجال المبلولين الدخول إلى السفينة بعد أن أصبح البرد قارساً، هممت بالنزول معهم فأمسك بيدي وقال: أنتَ تبقى فلن أسمح لك بالنزول.

- ولماذا!
- لأنك المُهرّب الذي كان يقود الزورق وتمكنت من النصب علينا وجعلتنا نبحث عنه دون فائدة.
- لكني أخبرتك الحقيقة.
- كلا أنت كاذب عرفتك مُهرّب منذ البداية.
- أبدا أنا رب أسرة كبيرة وهؤلاء أبنائي وأحفادي.
- تعال معي لمقدمة السفينة. هل شاهدت فيلم التايتانيك؟
- نعم.
- أريد منك فتح ذراعيك للهواء مثل جاك في هذا الجو البارد، ولا تنزلها لحين وصولنا وهذه أبسط عقوبة تستحقها لأنك دجّال.

وهي أسهل تضحية أقدمها لحليم لأني وعدته بعدم التخلي عنه مهما حصل. فتحت ذراعّي للأعلى وأنا أرتجف من شدة البرد، أستمع لأمواج البحر وهي تصطدم بمقدمة السفينة، رفعت

رأسي وتأمّلت القمر والنجوم المتلألئة في الفضاء وبقيت أراقب السماء حتى تحوّل لونها إلى البني الداكن، فاعترتني نوبة بكاء شديدة. بقي ولدي حمودي بجانبي ولم يقبل النزول ثم قال: كل الذي حصل بسببنا نحن لأنك تفكر بنا وبمستقبلنا فقط.

- نعم يا ولدي. لا أريدكم أن تعيشوا مثلي في العراق وهذا يستحق التضحية بكل شيء. دعنا من هذا الأمر الآن هل رأيت الشرطي الذي حاول إغراقنا وهو يصيح هذا من أجلكم!
- أجل. سمعته يخبر الرجال قبل قليل بأنهم لا يستطيعون إنقاذنا ما لم نكن غرقى في البحر بحسب أوامر قياداتهم.

رأيت الكثير من الدلافين ترافق السفينة تقفز بين الحين والآخر لتطل بوجهها المبتسم. سمعت أصوات النوارس المحلّقة فوق رأسي يداعب أصوت أمواج البحر هذه السمفونية الساحرة التي أعشقها حد الثمالة. والسفينة تبحر بجانب جبل مرتفع حتى لاحت ما يشبه نقطه عسكرية مطلة على ساحله تنعكس أضواءها الساطعة على وجه الماء ثم رست على جزيرة كيوس. بكي الجميع بشدة بعد أن وطأت أقدامهم الأرض، خلعنا النجادات ووقفنا بالطابور ثم دخلنا فرادى لغرفة حتى وصلني الدور. ثمة ضابط جالس خلف مكتب ومعه شرطة يكتبون على أوراق، سجل اسمي الثلاثي، مكان إقامتي، الدولة التي قدمت منها، عملي، سبب الهجرة، ثم بصمت عليها قبل أن اخرج. نظرت للبحر بحزن وألم فقد ابتلع طفلة صغيرة بريئة بلا ذنب، لقد خسرت معركة وقدمت ضحية لكنه لن يتمكن من هزيمتي فاستطعت إنقاذ خمسة وثلاثون شخصاً ووصلت معهم إلى بر الأمان. أشعر بسعادة منقوصة بسبب الخسارة لكن الحرب مستمرة ولم تنتهِ بعد.

بعد انتهائهم من تسجيل معلومات الجميع صعدنا في باص كبير تسلق الى قمة الجبل حتى وصلنا الى الكامب لاحتجازنا فيه، فهو عبارة عن بوابة كبيرة بجانبها كرفان ورجال الشرطة يسجلون الأسماء في سجلات خاصة، يحتوي على عشرة كرفانات كبيرة متقابلة تضم مئات العوائل. تعرفت على شباب عراقيين قال أحدهم: عليك المبيت معنا يا عم لأن إعداد المهاجرين كبيرة هذه الأيام وقد لا تجدون مكاناً تنامون فيه.

- وما هي فترة احتجازنا في هذا الكمب؟
- لو انتهى الموظف اليوم من كتابة الأوراق للجميع سوف تبقون للغد ثم يأخذونكم الى كمب آخر يقع في قمة الجبل.
- متى يوزعون الطعام؟ فالجميع جوعى ولم يأكلوا منذ فترة طويلة.
- الوضع مأساوي هنا فالغذاء قليل ونوعيته رديئة.
- أريد شراء الطعام أذن.
- يوجد حانوت يبيع البسكويت والعصير بأسعار مضاعفة.
- والجوع لا يقدر بثمن.

وضعت رأسي على الوسادة التي كنت افتقدها منذ مدة، أخذت نفساً عميقاً وتنهدت ثم أخرجت محفظتي من جيبي وحدقت بصورة أبي بملامحه الحازمة التي يخفي وراءها مناجم طيبة وحنان. ذلك الرجل الأمي ذو العقلية الاقتصادية الفذة العصامي الذي أعتمد على ذاته وأسس ثروة كبيرة. تذكرت مكان جلوسه خلف المكتب في إدارة معمل الهناء للمرطبات والحلويات في البياع. صور بيوتنا بمنطقة السيدية. ثم قراره المفاجئ ببيع المعمل وجميع أملاكه والانتقال للسكن في قضاء الشامية في الديوانية. لامه الجميع فلم نوافق على الانتقال للسكن في مدينة فقيرة وبائسة وترك العاصمة المتحضرة، لكنه أصر على موقفه. الانتقال إلى القضاء كانت نقطة تحول في حياة العائلة، لكنه واصل العمل واشترى مخزناً كبيراً في موقع تجاري مهم مقابل جسر الشامية وافتتح معمل٧ نيسان للمرطبات والحلويات، الذي اشتهر بشكل كبير وتضاعف إنتاجه وإيراده بعد ثلاث سنوات من العمل وازدهرت صناعة المرطبات في المدينة. ثم قرر الانتقال إلى الديوانية في العام ١٩٧٣ بالطريقة نفسها، أشترى مخزن كبير في موقع مميز مقابل الاورزدي بالقرب من الجسر بجانب سوق التجار - مصرف الرشيد حالياً - وحوله معملاً لإنتاج المرطبات أسماه معمل التأميم في فترة تأميم النفط وتوسع عمله بشكل كبير في مدة قياسية من الزمن.

أستيقظ الجميع في الساعة الثامنة صباحاً وأكمل الموظف نصف عدد الموجودين وترك البقية لانتهاء الدوام الرسمي. وزّعوا نوعاً غريباً من الغذاء لم يتمكن أحد من تناوله فاعتمدت على طعام الحانوت البسيط بالرغم من غلاء ثمنه واشتريت سيم كارت منه بسعرٍ مضاعف. وقفنا بالطابور مرة أخرى وبقينا لساعات حتى انتهى الموظف من تسجيل الجميع في الساعة الحادية عشر. ركبنا الباصات وصعدنا الى قمة الجبل ثم أمرونا بالترجل ومواصلة التسلق مشياً على الأقدام لعدم تمكن الباص من بلوغ قمته الحادة. سجلوا أسماء الجميع وعدنا للأسفل. في طريق النزول أخذت هاتف أبي غسان النقال بعد فقدان جهازي أثناء سقوطي في البحر واتصلت بأبي عبدو لأن دودي ينتظرنا معه: خذ نقودك كاملة من دودي فقد وصلنا الى اليونان برغم المتاعب التي لاقيناها في البحر؛ هل تعرف مُهرب جيد هنا؟

- نعم سوف أرسل لكَ رقم شخص عراقي يدعى توني.

اتصلت به: السلام عليكم.

- من معي؟
- أنا حميد أبو علي من طرف أبي عبدو انوي الفرار الى أوربا.
- حسناً.. أصبح رقم هاتفك عندي والأمر بسيط.
- وكيف أصل إليك؟
- تصل الباخرة في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً وإذا تمكنت من وصولها في الوقت المحدد فسوف تكون في الساعة العاشرة ليلاً في أثينا. اتصل بي بعد صعودك على متنها لتهيئة الوضع.

- احتاج شقة للسكن مع عائلتي.
- أصل وسوف تجد كل شيء جاهز. كم عددكم؟
- أحد عشر شخصاً مع الأطفال.
- حسناً.. أنا بانتظارك.

وجدنا حافلة أخرى تنتظرنا أوصلتنا إلى مكتب الميناء وأمرونا بقطع التذكر للجميع ما عدا الأطفال وكان سعر التذكرة واحد وأربعين يورو للشخص البالغ. ذهبت إلى أقرب متجر لبيع المشروبات واشتريت زجاجتي بيرة وجلست قرب الشاطئ، لحق بي البصري وجلس بقربي وهمس بأذني وهو يبتسم: عمي تره أنى هم أشرب بس استحي منك دير بالك على ابن أخوك تره عطشان ومفلس. ضحكنا معاً. أعطيته زجاجة ونهضت لشراء أُخر. وصلت الباخرة في الوقت المحدد وركبنا فيها بعد نزول الجميع، كانت واسعة تغص بالسُياح وعلى متنها غرف للمنام وصالات للحفلات والسهرات ومحال لبيع مختلف أنواع المشروبات وصالات لممارسة الرياضة ومراكز للقمار، فانطلقت وسط أجواء رائعة كأننا في جولة سياحية. كان هناك هدوء للنفس وراحة تامه على متنها بالرغم مما لقيناه من مصاعب وتخطينا مرحلة الموت المحقق. البحر نفسه لكن منظره مختلف هذه المرة، كان جميلاً للغاية ومشهده أخاذ، عندما تكون على سطح باخرة وتحتسي البيرة المثلجة يختلف عما إذا كنت في زورق مطاطي تتوقع الغرق في أية لحظة.

أثينا

بعد نزولي في الميناء اتصلت بتوني مباشرةً وأرشدني إلى موقف للتاكسي. بحثت عن باص صغير للأجرة وأعطيت الجوال للسائق وعرف المكان بالضبط وأخذنا إليه حتى وصلنا للعنوان ليلاً، التقيت به مع أصدقائه وأخبرته عن حاجتي لشقة لأني لا أستطيع السكن في فندق. فترك شقته وذهب للسكن عند أصدقائه وسألني قبل خروجه: متى تريد السفر؟

- أنى بحاجة ماسة للراحة والاستقرار والتقاط الأنفاس لفترة بعد هول الصدمة فكلنا مرهقون. اتفقت معه على مبلغ الإيجار وبقيت في الشقة مع عائلتي بعد أن قرر سنان وعلاوي الذهاب معه.

نزلت مع الرجال للتسوق ووجدت في نهاية الشارع بناية صغيرة فيها مقهى صغير اتفقنا على اللقاء فيه. كان أثاثه بسيط يتواجد فيه الكثير من السودانيين والمصريين والأفغان، قلت لتوني: أريد معرفة الطريقة التي تستطيع أن توصلني بها الى النمسا لإنها أفضل دولة متسامحة مع اللاجئين. فبدء الحديث عن طريق التهريب الذي اعرفه بالتفصيل فقد كنت متابعاً لكروب اللاجئين في تركيا واطلعت على مقاطع الفيديو التي كان ينشرها الواصلون إلى هناك، وعرفت أن أجور التهريب تتطلب ثلاثة الأف يورو للشخص الواحد. فقال: هنغاريا أصعب وأخطر مرحلة فإذا تم إلقاء القبض عليكم وبصمتم على طلب اللجوء فيها تكونون مجبرين على البقاء وتمنعون من السفر لأية دولة أوربية بالرغم من عضويّتها في الاتحاد الأوربي، لكنها دولة فقيرة لا تؤمّن للاّجئ ضماناً اجتماعياً ولا صحياً؛ وحتى الاتفاق مع المُهرّبين ألاّ يستلموا نقودهم إلا بعد النجاح بعبورها والوصول إلى حدود النمسا. عرفت من حديثه بأنهم يهرّبون الشباب فقط وليس العوائل لأنه كان يتحدث عن مواصلة المشي لساعات والركض لمسافات طويلة وتسلّق أسلاك شائكة وهذا صعب على النساء والأطفال. ففي مقدونيا يجب المشي لأكثر من ساعتين ومع مُهرّبين غيرهم يكون لأكثر من عشر ساعات، ومعنا أطفال بعمر أربع سنوات لا يمكنهم مواصلة السير وليس باستطاعتنا حملهم طوال الرحلة. استمر توني يرغبني في السفر برفقته لكني لم أتفق معه في النهاية، لأنها طريقة متعبة وغير آمنة. بقينا نتبادل أطراف الحديث فعرفت أنه كان ينوي الهرب إلى أوربا لكن جميع أمواله قد نفدت في اليونان لذا اضطر البقاء فيها وطلب اللجوء وامتهن التهريب لكسب لقمة العيش. طلبت منه في النهاية البقاء في الشقة لثلاثة أيام مدفوعة الثمن فوافق في الحال.

بدأت التفكير بمُهرب آخر بشرط أن يكون وقت المشي دون الساعتين وبالاتفاق المسبق، وأفضل طريق للتهريب يكون باتجاه مقدونيا لأنها الدولة الوحيدة التي لا تحبس اللاجئين؛ فإذا تم

القبض عليهم من الشرطة يقومون بإرجاعهم إلى الحدود ويتحتّم عليهم المواصلة عبر طريق آخر، لأنها دولة حدودية مع الاتحاد الأوربي ويمرّ من خلالها آلاف المهاجرين يومياً. فقد تعلّمت ذلك من تجمع اللاجئين في تركيا.

الكل يعلم في اليونان بمن فيهم الجيش والشرطة بأن بلدهم طريق وصول الهاربين إلى أوربا ومعبر مؤقت لها، فتجد كل الاتفاقات مع المُهرّبين علنية أمام أنظار الجميع، حتى لو سألت شخصاً عابراً الشارع عن أحدهم لأرشدك إليه ببساطه.

شربت الشاي في المقهى عصراً وسألت العرب المتواجدين فيها عن مُهرّب جيد، وعرفت أن صاحب المقهى رجل سوداني اسمه عصمان يشتغل في التهريب ولديه الكثير من العلاقات الخاصة بهم فدعوته للجلوس بجانبي: انوي الهجرة إلى أوربا بشرط عدم المشي خطوة واحدة.

- هذا ممكن. لكنها تكلفك مبلغ خمسة آلاف يورو للشخص البالغ.
- وكيف يكون ذلك؟
- تنقلك سيارة إلى مقدونيا على الحدود وتستقر في بيت مع توفر الطعام والشراب المجاني، بعدها بأيام تخرج مشياً على الأقدام لمدة نصف ساعة حتى تدخل الحدود الصربية وتصلك الثانية العاصمة بلغراد وتحصل على "الخرتية" فيها، ثم توصلك ثالثة الى حدود هنغاريا وبعد عبورك الحدود تنقلك الرابعة الى النمسا مباشرة.
- هل أُسلم النقود دفعة واحدة؟
- يكون دفع نصف المبلغ قبل الانطلاق والآخر بعد الوصول للنمسا.
- طريقة جيدة، لكن مبلغها مرتفع. يعني تهريب عائلتي يتطلب خمسة وثلاثين ألف يورو بالإضافة الى ما نحتاجه من مأكل وملبس وحقائب وبقية الأمور؛ وهذا كثير ولا املكه أصلا.
- أذن. أثينا لا تنفعك بشيء اذهب إلى سالونيك فهي مدينة حدودية تجد عشرات المُهرّبين ومئات الهاربين أمامك. سوف أعطيك عنوان صديق يعمل هناك في مقهى وصاحبه سوداني يشبهني يدعى آدم إذا لم يقم هو بتهريبك فسوف يجد لك مَن يهرّبك.

سالونيك مدينه صغيرة أرشدني طريقة الوصول بواسطة القطار الذي ينطلق في الساعة الواحدة صباحاً من محطة قريبة، وتكون مدة الرحلة ست ساعات أي أن الوصول سوف يكون في الساعة السادسة صباحاً.

بقيت ثلاثة أيام في أثينا، اشتريت الملابس والحقائب للعائلة وبقية الحاجيات الأخرى والكثير من العرق اليوناني الأصلي الفاخر، كانت منطقة سياحية رخيصة ومناظر طبيعية خلابة، عبارة عن جبال تكسوها الأشجار، هوائها عليل وجوها لطيف.

وصلت المحطة واتجهت لقطع التذاكر. كانت مزدحمة تغص بالمسافرين من تونسيين وسوريين وأفارقه ممن هربوا من بلدانهم المحترقة ينشدون السلام في دول أخرى رغم خطورة الطريق والموت المؤجل فيه. أمشي خلف عائلتي وزوجتي تحمل حقيبة على ظهرها، شاهدت رجلاً قد مد يده محاولاً فتحها وسرقتها، أمسكت بيده لكنه لكمني بقوة وفرّ هارباً بين الناس. ركبت القطار ووجدت فيه مطعماً صغيراً يبيع الأطعمة الخفيفة والمشروبات الروحية حتى وصلنا المدينة في الوقت المحدد.

سالونيك

مدينة ساحلية يونانية صغيرة تغصّ شوارعها بالبشر، أغلب سكانها إما مُهرّب يبحث عمن يقوم بتهريبه لكسب لقمه عيشه أو هاربون يبحثون عمن يستطيع تهريبهم الى أوربا مقابل مبالغ كبيرة. رأيت مئات العوائل يفترشون الحدائق وأرصفة الشوارع أغلبهم من السوريين أرشدوني إلى فندق اسمه النيبال يقع بأطراف المدينة، وصلته كان ضخماً وصالته واسعه قلت لصاحبه: أريد حجز شقة لعائلتي.

- أعتذر. لا توجد غرف يمكن تأجيرها للأسر.
- أليس هذا فندق لإيجار شقق للمسافرين؟
- نعم للمسافرين لكن ليس للعوائل، تعرف الشقة التي اؤجرها لكَ يمكن تأجيرها لعشرات الشباب من الذين ينامون على الأرض بثمن زهيد.
- فهمت.
- كلهم شبان هاربون يملكون القليل من المال. سوف أرشدك الى فندق آخر محترم تجد فيه غرف خاصة لكم.

وصلت للأخير وكانت فتاة يونانية رائعة الجمال تستقبل الزبائن فيه، ترتدي بنطلون جينز ضيق وفانلة بيضاء، جسدها رشيق القوام عيناها زرقاوان بلون البحر وخصل شعرها الأصفر تتطاير مع الهواء فوق كتفها والابتسامة لا تفارق وجهها. تحدثت معها بالإنكليزية وحجزت غرفة والأخرى للشباب والثالثة لعباس وعائلته.

لم أشعر بالراحة في ذلك الفندق ولم أستسغ الطعام فيه، حتى عندما كنت في العراق لم أكن أتناول طعام الفنادق فكيف في دول الغُربة. أخبرتهم بأننا سوف نبقى هذه الليلة فقط ونجلب الغذاء من مطاعم قريبة ونبحث عن مكان آخر. نزلت للسوق مع أبي غسان وبقية الشباب في اليوم التالي أبحث عن مطعم لائق يقدم اللحم الحلال. سألت عن العنوان الذي جلبته معي من عصمان حتى وصلته، مقهى بسيط يقع في الطابق الثاني من عمارة قديمة صعدت إليه وتعرفت على آدم وأخبرته عن عصمان وحدثته عن قصتي ونيتي الوصول الى النمسا واحتاج مساعدته في ذلك فاتصل بصديقه ووصل الى المقهى بعد مدة وكان أفغانياً، جلس بجانبي وأخبرته بما أريد فقال: أستطيع إيصالك الى صربيا ويكون المشي أقل من ساعة وبحسب ظروف الطريق.

- وكيف يكون ذلك؟
- يأخذك باص الى الحدود الصربية وتستريح في بيت خاص لفترة ثم نخرج في اليوم التالي باتجاه الطريق الحدودي حتى نصل بأمان.

- وكم كلفة تهريب الشخص الواحد؟
- كل هذا بألف يورو فقط. أخذ سنان رقم هاتفه الجوال وأخبره بأنه سوف يتصل به بعد الاتفاق مع الجميع.

رجعت بالحديث مع آدم: أنا بحاجه لرجل موثوق ومضمون أكثر من هذا ليصلني الى النمسا، لأني صاحب أسرة كبيرة ومعي عوائل أخرى فيها أطفال ونساء، وإكراميتك موجودة.

- لا أعرف غيره صدقني. لكنك تنوي الهرب الى أوربا دعني أنصحك بشراء أشياء مهمه سوف تحتاجها حتماً.
- وماهي؟
- عليك شراء احذيه بلاستيكية طويلة "جزمات" للجميع، لأنكم سوف تعبرون دروب وعرة ومزارع ومناطق وحلة فستنفعكم كثيراً هناك فلا تستطيعون المشي بدونها. وكيس نوم لكل فرد منكم لأنكم ستنامون في الغابة سوف يحميكم من البرد القارس ويجنبكم لدغات الحشرات السامة. وسكين لا يتجاوز نصله أربعة أصابع.
- أين أجد كل هذه الحاجات؟
- متوفرة في السوق. فكل المهاجرين يحتاجون لتلك الأدوات في طريقهم.
- حسناً.. أريد شقة مناسبة للعوائل ورخيصة الثمن حتى وإن كانت بعيدة.
- عد للمقهى بعد العصر وسوف أخذك الى واحدة قريبة وسعرها مناسب.

ذهبت للسوق مع بقية العوائل ووجدت كل شيء فيه بما فيها الأسلحة المختلفة، وأثناء تجوالي بين متاجر السوق شعرت بألم شديد مفاجئ في صدري لم أتمكن من استنشاق الهواء معه، جلست على الأرض جلبوا الي الماء شربت ومسحت وجهي وارتحت قليلاً حتى شعرت بتحسن.

تركنا الفندق عصراً واتجهنا الى صاحب المقهى كما وعدني بإيجاد شقة مناسبة. بعث معنا صبي أخذ يمشي في درابين ضيقة وطويلة لا تختلف عن أزقة بغداد القديمة، نسير خلفه كل شخصين معاً كي لا نجذب الأنظار، سمعت صوت دقات جرس كنيسة وكانت مؤثرة في الروح تبعث على الأمان والطمأنينة، عندما يمشي الإنسان في طريق مجهول النتائج يشعر بالضعف والخوف ويكون بحاجة ماسة للتضرع للرب من أجل حمايته. واجهتنا الكنيسة بناية صغيرة في نهاية الزقاق فعزموا دخولها لكني رفضت - لقد حددنا مكانها أعدكم بأننا سوف نعود غداً. لكن يتوجب علينا قبل كل شيء العثور على مكان نستقر فيه قبل حلول الظلام. وصلنا للشقة وكانت وسط عمارة صغيرة تحتوي شرفات واسعه، دخلنا وكانت تفوح منها رائحة زكية، تملكها امرأة مسنّة بدينة وداكنة البشرة تدعى ميمي، اتفقت معها على مبلغ الإيجار وكانت خمسين يورو وهذا أنسب من الفندق بكثير لكنها ضيقة ولا تسع الجميع فقرر الشباب الرجوع والبقاء في الفندق ويكون لقاؤنا يومياً في المقهى. اتصلت بالأهل في العراق وأخبرتهم عن مكاني وطمأنتهم على وضعي.

ميمي عجوز من أصول أفريقية طيبة القلب وخدوم. زادت معرفتنا بها بعد استقرارنا معها، دخلت لغرفتها في إحدى الأيام لقيتها مريضة ووجهها متعرق تئن من الحمى، حاولت الاتصال بالإسعاف لكنها رفضت وقالت: أعرف علاجي جيداً أجلب لي قنينة العرق وكأس شاي دافئ من المطبخ. فأحضرت ما أوصتني به. سكبت العرق في كأس كبيرة ووضعت فوقه الشاي الدافئ خلطته جيداً وشربته. ضحكت بصوت عالٍ وضحكت معي.

- ماذا فعلتِ للتو!
- لا عليك هذا علاجي المُجرب منذ سنوات.. في الصباح الباكر رأيتها تعمل في المطبخ وكأن شيئاً لم يكن.

اتفقنا على زيارة الكنيسة وتوجهنا إليها بعد شرائنا الشموع من السوق، بناية قديمة أدني مستوى من الشارع العام مبنية من أحجار كلسية ضخمة. نزلنا خمس درجات حتى وصلنا لممر من المرمر وسط ساحة خضراء واسعه، في نهايته باب خشبي عتيق وجدناه موصداً. طرقته ولم يفتحه أحد. بجانبه شبابيك خشبية مقوسة بزجاج ملون نظرت من خلالها للداخل، قاعة خالية تحتوي على مصاطب متوازية ومصطفة بانتظام على الجانبين ممتدة أمام تمثال كبير للسيد المسيح مصلوباً. أوقدنا الشموع في الشباك وتضرعنا لليسوع وأمه العذراء، أطلت النظر للشموع وهي تذوب ببطء حتى سالت معها دموع الجميع وتصاعدت أصوات ادعيه وابتهالات غطت أرجاء المكان. دخلت امرأة شابة مع طفلة تمشي بجانبها وسألتني - من أنتم وماذا تفعلون؟

- نحن عرب مهاجرون، جئنا نبتهل للعذراء أن تساعدنا للوصول بسلام.
- مرحباً بكم في الكنيسة. ربنا واحد وهو يستمع لعباده من البشر باختلاف دياناتهم.
- هل يمكننا الدخول؟
- سوف يحضر القس بعد قليل ويفتح الباب.

وصل الأب بعد دقائق بلباسه الأسود وياقته البيضاء، رجل كبير في السن تنضح الهيبة والوقار من وجهه. لم يكن يتحدث الإنكليزية استطعت بواسطة الإشارات أفهامه بأننا بحاجة ماسة للصلاة في الداخل ففتح الباب ودخلنا. رائحة العطور الأخاذة تجذب حاسة الشم عند الإنسان وتشعره بهيبة المكان، تتساقط أشعة الشمس فوق زجاج الشبابيك الملون وتتمازج مع لوحة المسيح والعذراء الباكية على الجانب، أوقدنا الشموع على المذبح وبقينا لفترة قبل أن نخرج.

عند ظهيرة اليوم التالي مرضت زوجتي سمية كانت تئن وحرارتها مرتفعة يتفصد من جبينها العرق تكثر من قراءة القرآن والأدعية، جاءت ميمي لعيادتها في المساء وهي تحمل بيدها كأساً كبيرة فضحكت في سري بعد رؤيتها، قالت لزوجتي: جلبت لك هذا العلاج المجرب.

- وما هو علاجك؟

- وصفة مُجربة منذ سنوات تعتبر من العلاجات الشعبية المعروفة عندنا يشربها الصغار والكبار وتشفيهم على الفور.
- أتمنى ذلك. لكن من ماذا تتكون؟
- عرق يوناني أصلي مخلوط بالشاي الدافئ اشربيه فقط وسوف تشعرين بالتحسن على الفور.
- شكراً لاهتمامك.. أنا اقرأ سور من القرآن منذ ساعات وتريديني أن اشرب العرق! ابتعدي عني لا أريد دوائك.. ضحك الجميع بصوت عالٍ.

كانت فترة أيام راحة حقيقية مع تلك المرأة المسكينة، مساء كل يوم بعد عودتي للشقة أجلب قنينة عرق يوناني ومزة فاخرة متنوعة، أجلس في الشرفة مع نسمات الجو الرائعة المعتقة برائحة البحر وصوت النوارس. كانت العائلة تسألني عن موعد إكمال الرحلة وأقول لهم: دعوني أنسى كل ما حصل سابقاً ولا أريد التفكير بما سوف يحصل لاحقاً ولا التخطيط لأيام المستقبل. اتركوني أشعر بمتعة هذه الساعة والاستمتاع بهذا السحر والجمال وليحصل بعده ما يحصل. تأتي ميمي ليلاً تجلس معي ونشرب معاً لغاية بدايات الصباح على ضوء الشمعة. هي من تلك النساء التي تمتلك دمامة وجه لا تطاق لكنها صاحبة قلب طيب يطغى على روحها مرح وابتسامة دائمة تجعلك تراها أجمل نساء العالم وأروعها بعد مجالستها لدقائق.

أُحضر طعام الفطور صباحاً واصطحب العائلة برفقة ميمي ونذهب الى ساحل البحر لنأكل بالقرب من أمواجه الساحرة. أحد الأيام وأنا أمشي بينهم في دروب المدينة القديمة انتبهت لعلم العراق ذو الثلاث نجمات على واجهة إحدى المحال فبكيت. أعادني بالذاكرة للعام ١٩٨٣عندما وصل نعش أخي ملفوفاً فيه من الجبهة. نواح أمي وأبي وأخواتي وأعمامي وسط بيتنا. تذكرت وجهه الوسيم كان شاباً أنيقاً يرتدي البدلات الرسمية بمختلف الألوان. طالباً في عنفوان شبابه لديه سيارة داتسون بيضاء والحياة جميلة ورائعة عندما كنا معاً في الإعدادية قبل أن نفترق بعد اختياري الفرع الأدبي وهو للعلمي الذي لم يوفق فيه. أرتدى البدلة العسكرية وأتجه للحرب بعد رسوبه في الصف السادس. اطمأننت عليه عندما كانت وحدته في الحلة بعيداً عن شبح الموت، لكن تم نقله بعد إجازته الوحيدة الى محافظة ميسان الحدودية مع إيران على خط النار وسط الجبهة ليعود شهيداً ملفوفاً بالعلم قبل موعد إجازته الثانية. تأثرت بموته وأصبح يوم فقدانه نقطة فارقة في حياتي لم أستطع التخلص منها أبداً فهناك بعض الجروح في الروح قد تندمل لكن يبقى أثرها واضحاً مثل بعض الإصابات العميقة في الجسد.

بدأت بعدها جولة البحث عن مُهرب، تلك الرحلة التي أمقتها كثيراً فيتوجب عليّ الاتصال بأشخاص أغلبهم نصابون ومحتالون يحاولون سرقتي بأية وسيلة ممكنة، فلم أتمكن من الثقة بأحدهم بعد ما حصل لي في تركيا. كل يوم التقي بالعشرات منهم واغلبهم أفغان لديهم طرق مختلفة للتهريب. لكن في تجمع العراقيين اللاجئين كانوا دائماً يحذرون من التعامل معهم لأنهم يمارسون النصب والاحتيال ومستعدون لقتل عوائل كاملة للحصول على القليل من المال لعلمهم المسبق بأن المهاجرين يحملون معهم النقود لمتطلبات الرحلة. بالرغم من مشقة التهريب لكني

تجاوزت المرحلة الأصعب فيه، سوف يكون الطريق محفوف بمخاطر كبيرة والمشي لساعات ربما تكون طويلة مع القلق والخوف المستمر، لكن أهون بكثير من الموت غرقاً في البحر. انقضى أسبوع من البحث عن مُهرب دون فائدة وأخذت الأموال تتناقص تدريجياً مع ثمن إيجار الشقة والطعام وبقية احتياجات العائلة. يجب التحرك بخطوات سريعة وجادة صوب الحصول على أحدهم يكون جيد ومضمون وبمبلغ مناسب.

أثناء فترة استراحتي في الشقة أقوم بتصفح الأنترنيت ومواقع التواصل الاجتماعي بحثاً عن ذلك الشخص المنشود، تذكرت كاظم الحلاق فاتصلت به: لقد وصلت سالونيك وأبحث عن أحد يوصلني الى النمسا.

- جيد.. سوف أرسل لك رقم شخص أمين ومناسب يدعى أبو حمزة جزائري الجنسية والأخر يدعى أبو صالح.

اتصلت بالأول وقال: اتصل بي فوراً بعد وصولك صربيا وسوف أوصلك الى حيث تريد. خابرت الثاني وحدثته بقصتي الكاملة فقال: يتوجب عليك الانتظار لفترة طويلة فهناك زخم كبير على طريق التهريب فأنا على موعد مسبق مع عوائل لمدة أسبوعين من الآن، إذا تريد السفر بسرعة أبعث لك رقم شخص يدعى لورنس الحديدي يسكن في ألمانيا وعلى معرفة بالمُهرّبين. تواصلت معه عن طريق الفيس بوك وقال: خالي.. أبو صالح رجل محترم وطريقته مضمونة تكون عن طريق سيارات حديثة مع مسافات مشي قليلة. عاودت الاتصال بأبي صالح وحاولت الاتفاق معه على السعر والوقت لكن لم نتفق بسبب تكاليفه الباهظة وتوقيت السفر غير المناسب وطول مسافة المشي على الأقدام.

خرجت ليلاً أتمشى على الشارع العام بجانب البحر فالجو لطيفٌ هذا اليوم. ساحة كبيرة من الرخام تضم حدائق تنتشر فيها الأشجار المعمرة المرتفعة، أعمدة إنارة بضوء خافت تزيد من سحر جمال الأجواء وأطفال يمرحون تحتها بهدوء، مقاهي ضيقة تعلو مقاعدها مظلات ملونة موزعه على الرصيف العريض ومطاعم تجذبك بروائح سمكها المشوي. أثار انتباهي برج قديم أبيض عالٍ فذهبت باتجاهه ووجدت بجواره حانوت بسيط تديره فتاة جميلة يغص بالصور لاماكن سياحية في المدينة، بعد مشاهدة الصور سألتها عن مواقع الأثار وتفاجأت بعدما أجابتني بالعربية - لأن هذه المدينة موغلة في القدم فقد تأسست في عام ٣١٥ ق.م وتحمل اسم "تيسالونيكي" الأخت غير الشقيقة للإسكندر المقدوني وزوجة الملك كساندر فمن المؤكد سوف تجد فيها الكثير من المواقع التاريخية المهمة.

- ما هذه الصورة؟
- هذا قوس "كاليريوس الروماني" الذي يؤرخ انتصاره على الفرس في المعارك التي دارت بينهما تلك الفترة. وهذه الأخرى كنيسة "القديس جورجيوس" بنيت في القرن الثالث الميلادي وتحولت الى جامع بعد سيطرة الدولة العثمانية على المدينة. أنتم المسلمون تدّعون بوجود

الحرية في دينكم والانفتاح على الأديان الأخرى لكنكم تحولون دور العبادة الى جوامع بعد سيطرتكم عليها.. وابتسمت ابتسامة غريبة.

- مثلما تحولت الجوامع الى كنائس في الأندلس بعد سقوطها. الأديان ليس قطع من الحجر يمكن تبديلها بتغير المسميات فالدين جوهره متأصل في الروح.
- لكن ديانة إسبانيا والبرتغال كانت المسيحية قبل غزوها من العرب!
- وما هذه البناية التي بجانبكِ؟
- هو متحف لمدينة سالونيك البيزنطية بني في العام اثنان وثلاثون ميلادية وسمي برج الإنكشارية بعد سيطرة العثمانيين، ثم تحول لسجن في القرن الثامن عشر وأطلق عليه برج الدم بعد مذبحة السجناء الشهيرة في العام ١٨٢٦م، وتم ترميمه سنة ١٨٩٠ وصقل الحجر الخارجي فيه حتى صار أبيضاً وسمي بالبرج الأبيض واحتفظ باسمه لحد الآن.

في المساء وانا جالس مع أبي غسان في صالة الشقة طُرقت الباب فجأة كان سنان والبصري، بعد الترحيب بهم وضيافتهم قال البصراوي: نحن شباب بلا عوائل ولا نملك الكثير من المال وأنتم لم تقصروا معنا بشيء لكن لا نريد الضغط عليكم أكثر من ذلك لأننا نعرف البئر وغطاءه. غير مرتاحين من هذا الوضع الذي لم نستطع تحديد مصيرنا فيه لحد الآن لذلك سوف نبحث عن مُهرب لتهريبنا بأي طريقة لأننا شباب ولا يهمنا شيء.

- لكن عوائلنا كبيرة وفيها نساء وأطفال نحتاج لمساعدتكم كيف تتركونا وسط الطريق وكل اعتمادنا عليكم!
- حسناً.. علينا أذن البحث عن مُهرب بأقرب وقت ممكن ولا أخفيك سراً لقد اتصلت بالأفغاني في مقهى عصمان واتفقت معه، لأنه طلب مبلغ زهيد مناسب ويكون عن طريق سيارات للتنقل مع المشي لمسافة قصيرة فلا نستطيع الصبر أكثر.
- لكن الأفغان قتلة وقاموا بقتل عشرات العوائل على الطريق من أجل المال.
- لقد اتخذنا قرارنا وانتهى الأمر.
- أنتم أحرار. عندي عائلتي وأولادي شباب أستطيع الاعتماد على نفسي والتغلب على مخاطر الرحلة مهما كانت.
- لقد اتفقنا على مبلغ ألف يورو للشخص الواحد ويكون دفع نصف المبلغ مع بداية الرحلة والآخر بعد وصولنا الى صربيا.
- وهذا ما يثير الشبهة. لأن أقل مبلغ للتهريب كما عرفت لا يقل عن ثلاثة الاف يورو!
- كل مُهرب لديه طريقته الخاصة وسعره المختلف.
- لقد نصحتكم وأخبرتكم بأن تصرفكم خاطئ وقلت ما عندي وما على الصديق إلا النصيحة.

أخذوا يلحون عليّ بالسفر معهم لكني رفضت بشكل قاطع ثم تحدثوا مع أبي غسان حتى تمكنوا من أقناعه. ثم اتصل سنان: لقد زاد عددنا وصرنا خمس نفرات ما عدا الأطفال هل نستطيع الانطلاق يوم غد؟

- نعم يمكننا ذلك.

ودعوني مع شعوري الكبير بالألم لأننا واجهنا الموت معاً واتفقنا على البقاء سويةً يساعد أحدنا الآخر لحين الوصول الى بر الأمان، لكني لم أستطع إقناعهم في العدول عن فكرتهم تمنيت لهم الخير والتوفيق فيما اختاروه ثم ودعتهم وشيعتهم بنظراتي بعد ذهابهم. بقيت على اتصال مستمر معهم في الصباح لمعرفه طريقهم وما يجري بالتفصيل الدقيق، وطلبت منهم أن يرسل أحدهم رقم المُهرّب ويحاول التقاط صورة لوجهه بجواله ويبعثها دون أن يعلم.

انطلقوا صباحاً من كازينو الحارة وكنت على اتصال دائم بعباس. تابعوا المشي لغاية المساء حتى وصلوا غابة وبعدها ذهب أحدهم لجلب الماء والطعام ولم يعد، وبقي الآخر بالقرب منهم حتى انقطعت المكالمة بشكل مفاجئ. اتصلت بهم عدة مرات طوال الليل حتى الصباح دون رد. انقطعت أخبارهم فأصبت بالذعر والقلق الشديد لكن لم يكن بوسعي ما أفعله. ماذا حل بهم يا ربي؟ وكيف يمكنني معرفة مصيرهم؟ أتصل في تلك الأثناء سيد مجيد زوج أبنتي سرى: هناك رجل يقوم بتهريب العشرات يومياً يدعى حامد المصري سوف أرسل أليك رقم هاتفه. فأخبرته بقصتي وقال: يمكنني نقلك الى صربيا وعندي العديد من الأصدقاء يوصلونك الى النمسا ببساطة.

- وكم يتطلب ذلك؟
- ألف وسبعمئة يورو للنفر الواحد.
- كم ساعة نمشي في الرحلة؟
- أتعهد لك أن يكون أقل من ساعتين مع توفر مركبات حديثة ومريحة.
- وكيف يكون تسديد المبلغ؟
- على شكل دفعات. تبدأ من سالونيك تدفع لسائق ينقلك الى النقطة ومدتها ساعتان، بعدها يوصلك آخر الى بيت على الحدود وتدفع له بعد الوصول، ترتاح مع عائلتك في البيت لثلاثة أيام مدفوعة الثمن ثم تكمل الرحلة.
- وبعدها؟
- يأتيك رجل يأخذك الى الحدود وتعطي له المبلغ المتبقي.
- من أين تكون نقطة الانطلاق؟
- أبعث لي عنوانك الكامل وسوف يتصل بك رجل ويرتب معك طريقة خروجك من الشقة.

سيد مجيد رفض مرافقتنا بعد سماعه إشاعات عن عمليات القتل والنصب والاحتيال التي تحدث في الطريق، فقرر البقاء في كربلاء لترتيب أموره وبيع أملاكه ثم اللحاق بنا بشكل رسمي عن طريق لم الشمل مع زوجته؛ كان يتابع تجمعات المهاجرين من العراق ويبعث الي بأرقام مُهربين بين حين وآخر.

رن هاتفي بعد مدة وكان رجل سوري يدعى أليكس أخبرني بأنه صديق حامد المصري وهو يسكن الآن في فندق النيبال وأبلغني بعد الاتفاق معه بأهمية شراء الأكل المعلب وحاجات ضرورية خفيفة الوزن وكان موعدنا بعد منتصف الليلة القادمة. قمت بشراء كل احتياجات العائلة من معلبات وغيرها مع قنينة نبيذ وجلست اشرب مع ميمي في الشرفة. طُرقت باب الشقة في الساعة العاشرة مساءً، فتحته كان عباس وزوجته وسنان وعلاوي منهاري القوى ومتألمين، ملابسهم ملطخة بالطين والوسخ، بكوا فور جلوسهم على الأرض. سألت عباس بعدما جر أنفاسه وارتاح قليلاً: لماذا لم تتصل ولم ترسل صورة الأفغاني مثلما أوصيتك؟

- حاولت مراراً لكن لا توجد تغطية للشبكة في الغابة لأنهما يعرفان المكان جيداً. هرب أحدهما ليلاً بحجة جلب الغذاء وأخذنا الآخر الى أحراش في ظلمة الليل الموحشة، أبلغنا بوجود نقطة تفتيش على الطريق لا يمكننا مواصلة المشي قبل انسحابها وأجبرنا على المبيت هناك. استيقظنا من النوم صباحاً ولم نجده فقد انهزم بعد أن سرق أموالنا. بقينا نلف تائهين بين أشجار متشابهة لا يوجد فيها درب يمكننا اتباعه حتى رأينا مزرعة تجاوزناها وبلغنا قرية صغيرة وسلمنا أنفسنا لمركز الشرطة، نقلونا الى كازينو الحارة بسيارة النجدة ومنها بالتاكسي الى الشقة. أرجوك اعطي للسائق الأجرة فهو ينتظرنا في الشارع وعاود البكاء. دار الكثير من الحديث بيننا وأنبتهم بشدة لكن أغلب العتب لا يكون نافعاً بعد فوات الأوان.

عاودت الاتصال بالمصري وأبلغته بأن عوائل جديدة قد التحقت بنا فوافق بحسب الموعد والمبلغ المتفق عليه. اتصل أبو غسان بصديقه في بلجيكا وبعث إليه المال بحوالة قام باستلامها من المصرف في اليوم التالي. غادرت مدينة سالونيك الجميلة بعد خمسة عشر يوماً رائعة ووصلنا الى فندق النيبال. في الساعة الثانية عشر اتصلت بأليكس وأخبرني بأنه ينتظرني في كازينو الحارة. ركبنا في أربع سيارات أجرة حتى وصلنا والتقيت به كان شاباً في نهاية العشرينات فارع الطول وجسمه رياضي رشيق صاحب شعر كثيف وبرفقته رجل يدعى عوض عرفت من طريقة كلامه بأنه من صعيد مصر.

مقدونيا

بقينا ننتظر في الكازينو لأكثر من ساعة حتى وصلت عائلة سورية زوج وزوجته مع ابنهم بعمر ثلاثة عشر عاماً وطفلة صغيرة، واثنان من الشباب السوريين في الثلاثينيات من عمرهم مؤدبين وهادئين يحملون أخلاقا عالية، عرفت بأنهم أخوان محسن السوري وفادي. بعد التعارف اتفقنا على مساعدة بعضنا لحين الوصول الى هدفنا ثم نهضنا بعد التوكل على الله. كان الجو رائعاً ولطيفاً والدرب جميلاً يمر بمزارع صغيرة تحفها أشجار عالية وبيوت فلاحين وأبقار منشرة في كل مكان، نمشي بمحاذاة الشارع العام ونتوارى عن الأنظار قدر المستطاع مع مشاعر الفرح بقرب الوصول الى أوربا، بدأ التعب يدب في أجسادنا بعد مدة قصيرة بسبب المشي السريع والمتواصل، ساعدنا الشباب على حمل الأطفال بواسطة حمالات اشتريناها لهذا الغرض بدافع النخوة والغيرة، جلسنا قليلاً نلتقط الأنفاس رغم أني قد سمعت بأنهم لا يسمحون لأحد بالجلوس مطلقاً للعمل على إيصالهم بأسرع وقت والعودة على عجل لجلب هاربين أخرين غيرهم، لأنهم في حالة عمل يومي مستمر مع وجود الاف ممن يبغون الهرب الى أوربا وعلى الطريق نفسه.

شرح أليكس طريق الهرب وقال: سوف نصل إلى جسر يتوجب علينا عبوره بأقصى سرعة ممكنة، مع الحذر الشديد فدائماً ما تتواجد عليه دورية شرطة لأنه المَعبر الوحيد الذي يجب علينا اجتيازه، وفي حال تم القبض علينا سوف يرجعوننا إلى النقطة التي انطلقنا منها بالقرب من كازينو الحارة ويذهب كل تعبنا هباء. جلسنا أسفل الجسر لالتقاط الأنفاس وذهب عوض للتأكد من عدم تواجد رجال الشرطة، رأيته وصديقه يحملان على ظهرهما حقيبتين فارغتين فسألته عنها وقال: إذا قبضت علينا دورية ولم نكن نحمل حقائب مثلكم سوف يعرفون على الفور بأننا مُهربان. عاد وأخبرنا بأن الطريق خالٍ تماماً. بدانا الجري على الجسر بسرعة وخوف وقبل وصولنا رأيت سيارة مرسيدس سوداء متجهة نحونا فلم أعرف ماذا أفعل وكيف أتصرف، حاولت الرجوع لكني رأيت الجميع يركضون دون رؤيتها فصرخت بهم: هناك سيارة شرطة قادمة باتجاهنا.

- لا تخف هي تخص اتباعنا. واصل الهرولة.

وصلت المركبة بجانبنا ورأيت السائق يلوح بأهمية الاستعجال لأن خلفه سيارة شرطة. تمكنا من الوصول للطرف الآخر انبطح الجميع داخل المزرعة وتوارينا عن الأنظار. مرت بعد مدة مركبة سوداء فوق الجسر وتوقفت بشكل مفاجئ، ترجل منها ثلاثة رجال وأخذوا يتابعون

الطريق والمزارع بواسطة منظار، سمعت نبضات قلبي المتسارعة وتخيلت أن يأتي أحدهم باتجاهنا ويلقي القبض على الجميع.. بقوا لدقائق اسمعهم يتحدثون بصوت عالٍ قبل أن يرحلوا.

قال أليكس - لقد أصبحنا بأمان بعد وصولنا للمزارع، لأنهم لا يستطيعون اللحاق بنا بواسطة المركبة ولا يجازف أحدهم بالركض خلفنا ومحاولة القبض علينا وسط أراضٍ زراعية دروبها وعرة. تابعنا الخطى وابتعدنا عن الطريق العام وتوغلنا وسط الغابة حتى وصلنا بجانب سكة قطار فقال - استريحوا قليلاً لقد تجاوزنا خطورة الطريق ولم يبقَ في الرحلة سوى خطر واحد ونصل.

- ما هو الخطر المتبقي؟
- سوف تعرفه في حينه.
- هل تعلم إن هذه السكة تصل في نهايتها الى برلين!
- نعم لقد سمعت عنها في التجمع. وعرفت إن الكثير من الهاربين ممن لا يملكون المال يسيرون بمحاذاتها ليلاً وينامون نهاراً ويتخذونها دليلاً للوصول الى ألمانيا في النهاية.
- بالضبط لكن يتم القبض عليهم وبعضهم يفقد حياته من عناء السفر بعد المشي الاف الكيلو مترات.

تعرفت أكثر على الشباب السوريين واتفقنا على البقاء معاً طوال الرحلة. في الساعة الرابعة عصراً أخبرتهم بأهمية النهوض للوصول الى النقطة التالية قبل غروب الشمس وحلول الظلام، بعد المشي لمسافة قصيرة واجهتنا مجموعة من الرجال بملابس أفغانية يحملون العصي والهراوات، حذرنا أليكس منهم وأوصانا بعدم الخوف. لم أشعر بالخوف لأن في مجموعتنا الكثير من الشباب فلا يتمكنون منا إلا في حالة حملهم أسلحة نارية. بقينا نمشي بجانب السكة حتى وصلنا بالقرب منهم كانت أجسامهم ضخمة ووجوههم شرسة عرفت بأنهم قطاع طرق وقتلة، ذهب إليهم وتحدث معهم بصوت عالٍ وتهيئنا للعراك، البعض أخرج السكين التي يحملها والآخر حمل صخرة من الأرض بجانب السكة. عاد بعدها وهو عصبي المزاج وقال: لقد طلبوا المال مقابل السماح لنا بالمرور لكني رفضت وأخبرتهم بأنكم تحملون الأسلحة ومستعدين للقتال، كأنهم قد صدقوا كلامي فرحلوا. لا عليكم سوف نصادف العشرات منهم على الطريق ونعرف كيفية التعامل معهم.

بقينا نمشي بجانب السكة حتى اقتربنا من جسر ضيق ممتد فوق وادي عميق. طلب منا الجلوس قليلاً لالتقاط الأنفاس ثم قال - هذا الخطر الوحيد الذي أخبرتكم عنه لا يمكننا المواصلة إلا بعد عبور هذا الجسر والركض على السكة الضيقة بأقصى سرعة لأنه مخصص للقطار، فلو صادف مروره أثناء عبورنا لا يمكننا الهرب إما يدوسنا أو نقفز وسط هذا الوادي السحيق. يتطلب عبوره ركضاً حوالي نصف ساعة فعليكم الجري بكل ما تملكون من قوة فقد مات الكثير من الهاربين في هذه المنطقة وأشلاؤهم لم تزل أسفل الوادي. ما هذه الامتحانات المزعجة

والخيارات التي أفضلها سيء. ما هذه الاحتمالات التي لا يتمكن العقل من استيعابها. ماذا لو مرّ قطار الموت مسرعاً أثناء عبور عائلتي؟ ما الذي يمكنني فعله حينها وكيف أتصرف! هل نقفز للوادي أم ندعه يدوسنا والموت محقق في الحالتين. لا بديل سوى مواصلة الطريق وتجاوز كل ما يحتويه من عقبات. أخذنا نخطو بسرعة باتجاه القنطرة مع الدعوات والابتهالات، ركضنا سريعا وأقدامنا تتعثر بالحصى يسقط أحدنا فينهض ويتابع مجدداً، احمل حفيدتي الصغيرة بحمالة وامسك بيد بتول خوفاً من سقوطها فوق الصخور القاسية وحديد السكة الصلب، ونظري باتجاه آخر نقطة يمكنني مشاهدتها خوفاً من وصول قطار الموت في أية لحظة. أخذت تراودني صور قطار يأتي مسرعاً ويدهس الجميع، هل هذه نهاية الرحلة وكل المصائب التي تحملتها للبحث عن الأمان والاستقرار؟ واصلت الركض بين الجميع وتمكنت من العبور الى الجانب الآخر بعد عناء ومشقة.

عاد الوجع في صدري من جديد وبشكل أشد اختنقت معه ولم أتمكن من التنفس، شربت قليلاً من الماء وغسلت وجهي، حاولت النهوض ولم أستطع فجلست سمية بجانبي وقالت مرتبكة - أن حالتك تسوء يا أبا علي يجب أن يفحصك طبيب.

- عن أي طبيب تتحدثين في مثل هذه الظروف!
- لكن وضعك الصحي يتدهور وصرت قلقة عليك.
- لا يهمكِ لم أعانِ من شيء. كل هذا بسبب التعب والقلق وسوف يزول بعد وصولنا.

استطعت النهوض بعد مدة وواصلت المشي لساعتين حتى شاهدت من بعيد طواحين هواء عملاقة تمعنت مراوحها مثل أجنحه طائر ابيض تدور ببطء. جلسنا مقابلها تحت أشجار باسقة في غابة، فقال: لقد وصلنا المكان المحدد سوف تصلكم سيارات تنقلكم الى النقطة التالية، لكن لا يمكنكم مواصلة الرحلة الآن فهناك نقطة تفتيش قريبة علينا الانتظار لحين انسحابها.

جلس الجميع حيث قام البعض بتناول طعامه والآخر أخذ قسطاً من النوم والراحة، ومجموعة تتحدث فيما بينها حتى مرت ساعة من الوقت ولم تصل المركبات، غربت الشمس وحل الظلام. عاودت الاتصال بالمصري: لقد توقفنا في الغابة؟

- نعم لأن هناك نقطة تفتيش ولن تتمكن المركبات من الوصول إليكم إلا بعد انسحابها وهذا التأخير من أجلكم.
- لقد هبط الليل ونحن وسط الغابة.
- أنها نقطة مركزية قد تبقى للصباح. اجمعوا الحطب من الغابة لإشعال النار والتهيؤ للمبيت في حال تطلب الأمر ذلك.
- أين هم أصحاب المركبات الآن؟
- يحتسون الخمر في مقهى قريب منكم وينتظرون الاتصال بهم.
- كيف عرفوا بوجود النقطة أذن؟

- من سيارة "الكشاف" الذي يسير في الطريق ذهاباً وإياباً ويخبرهم في حال وجودها، ولسوء حظكم هناك واحدة على الطريق اليوم.
- لكننا رحلتنا سوف تتأخر أذا قضينا الليل هنا.
- المبيت في الغابة أفضل من السجن.

أخبرت الجميع بالتهيؤ للمبيت هذه الليلة والانطلاق مع بزوغ الفجر. نفد الماء والطعام والسجائر من عند الكثيرين بعد الواحدة صباحاً فأخبرت أليكس بذلك، أخذ هاتفه النقال واتصل بأحدهم فوصل إلينا عدة أشخاص بعد مدة يحملون الماء والطعام المعلب وحليب الأطفال وأمنوا كل احتياجات العوائل. دخلنا في أكياس النوم ونمنا بهدوء تحت ضوء القمر. وسط الظلام لمحت خيال خمسة رجال يمشون باتجاهنا من بعيد حتى وصلوا بالقرب منا، أيقظت الجميع وتهيأنا لما قد يحصل، لمحتهم على ضوء القمر كانوا ضخام البنية وجوههم ملتحية ومرعبة قام أليكس وسأله أحدهم: مَن أنتم؟

- وهل أنت شرطي لتسألني؟ أخرجنا السكاكين من جيوبنا وأشهرناها أمامهم.
- جئنا نسألكم أن كنتم بحاجة لمساعدة لأنكم وحيدون وسط هذه الأحراش!
- شكراً لكم لسنا بحاجة للمساعدة من أحد. عودوا من حيث أتيتم بلا مشاكل.

انتهى كل شيء على خير ولم نتمكن من النوم بعد ما جرى حتى لاح قرص الشمس في السماء. شاهدت أليكس قد اخرج حبة حمراء من جيبه سرطها وأعطى الأخرى لصديقه فسألته: ما هذا الدواء الذي تناولته هل أنتَ مريض؟

- هذه حبوب مقوية ومسهرة في الوقت نفسه.
- وما فائدتها؟
- بعد إيصالكم بأمان سوف نعود مشياً لجلب أخرين ونجتاز الدرب ذاته كل يوم.
- ولماذا لا تستقلون السيارات عند عودتكم؟
- طريقنا وسط المزارع والغابات بعيداً عن كل نقاط التفتيش ومشاكلها العديدة.

مع بواكير الصباح الأولى انتقلنا من جانب سكة القطار إلى الشارع العام وبقينا بانتظار اتصالهم. رن هاتفه وأخذ يتحدث مع أحدهم ثم قال: سوف تصل السيارات الآن لذا عليكم أن تركبوا في ثلاثين ثانية وإذا لم تتمكنوا من ذلك سوف يذهبون بمن ركب معهم ويتركون مَن تبقى منكم في الشارع. واعلموا بأنهم سوف يقودون بالسرعة القصوى ارجوا منكم عدم الخوف لأن هذه طريقتهم في القيادة، وفي حال وجود نقطة تفتيش بعيدة سوف ينزلونكم في مكان بجانب الطريق عليكم الترجل فوراً والاختباء في المزارع، ولا تقلقوا سوف يرجعون إليكم حتماً لأنهم لا يحصلون على نقودهم قبل إيصالكم للنقطة التالية. اتصل حامد المصري في تلك الأثناء: لقد أرسلت لك رقم جوال صاحب البيت ويدعى أبو مجيد، تتصل به بعد نزولك من السيارة وتبلغه بوصولك للنقطة وسوف يبعث لكم شخص يأخذكم الى بيته. عليك الآن إعطاء المبلغ المتفق عليه لأليكس فقد انتهت مهمته.

وصلت ثلاث سيارات حديثة مسرعة وتوقفت في الحال واحدة تحمل علامة OD واثنان من نوع BMW، نزل السوّاق منها وهم يلوحون بأيديهم ويصرخون: تعالوا اركبوا بسرعة واخفضوا رؤوسكم فوراً. ركضنا باتجاههم نساء وأطفال تكدسنا فوق بعض حتى ركب الجميع بالوقت المحدد وانطلقوا بسرعة جنونية. رفعت رأسي ونظرت لعداد السرعة كان يشير الى مئتين وستين كيلو متراً في الساعة أي بالسرعة القصوى. زجاج المركبة مظلل بالكامل والسائق ضخم البنية حليق الراس يرتدي نظارة شمسية سوداء غامقة ويضع سماعة لاسلكي بإذنه يتحدث فيها باستمرار مثل رجال عصابات المافيا. شاهدت سيارة نوع مرسيدس سوداء اللون تسير أمامهم بسرعة عالية عرفت أنه الكشاف الذي يؤمن الطريق لهم مسبقاً.

بعد نصف ساعة من المسير انحرف بشكل مفاجئ عن الطريق الى درب صخري توقف وصاح: انزلوا هيا بسرعة. ترجلنا وركضنا وانبطحنا بجانب المنحدر فوق الأشواك والأحجار حتى غطتنا الأحراش نلهث من الخوف والقلق وعناء السفر، اتصلت بالمُهرّب وقال: اعلم ما حصل لكم لأن هناك نقطة تفتيش على الطريق، كونوا مستعدين سوف اتصل بك للركوب معهم على عجل. بعد مرور مدة من الوقت أخبرت الرجال: عليكم حمل الأطفال والنساء تدفعكم من ظهوركم لنجتاز المنحدر ونصل الطريق العام بأسرع وقت. اتصل المصري: عليكم الخروج للشارع حالاً سوف تصلون للنقطة الثانية بعد قليل لذا عليك إعطاء النقود للسائق قبل نزولكم. سمعت صوت كوابح سيارات ركضنا باتجاههم وركبنا على عجل. دخلنا وسط منطقة متموجة يصعد السائق جبل وينزل من الآخر بسرعته الجنونية. ثم توقف السائق فجأة وصاح بوجهي: أعطني المال بسرعة. كنت قد هيأت المبلغ المطلوب في جيبي فأعطيته له ونزلنا.

قال المصري: أمامك مزارع مسيجة بسياج BRC أحسب خمسة أعمدة على يمينك سوف تجد فتحة صغيرة أسفل العمود تسمح بمرور شخصاً واحداً فقط. بعد عبوركم تمشي مسافة وتجتاز المزرعة حتى تصل للغابة تتوغل داخلها وتسير بجانب السكة حتى تصل البيت المقصود. وصلنا للفتحة دخل منها الجميع وبقيت آخرهم وقبل بلوغنا الغابة سمعت صوت طلق ناري في الهواء طارت معه الطيور وبدد الهدوء التام السائد في المنطقة. التفت للوراء شاهدت شرطياً يركب دراجة نارية وآخر مترجلاً منها يحمل مسدساً مصوباً نحوي وهو يصرخ: توقفوا في الحال وإلا قتلتكم. أمرت العوائل بالركض وعدم الالتفات للخلف مهما حصل. توجهت للشرطي وقف البصري في طريقي وقال: أنا من يذهب إليهم لأني أعزب ولا أتحمل مسؤولية أحد لكنك صاحب أسرة كبيرة ومصير كل هذه العوائل معلق برقبتك. ركض نحوه وتحدث معه ثم رأيته أخرج شيء من جيبه أعطاه للشرطي وعاد مسرعاً. وقال بعد وصوله: لقد طلب مني الشرطي إحضار الجميع فقلت له: انهم عوائل تعبة هاربة من نار بلدانها خوفاً على حياة أبنائها.

- أعطني مئتي يورو وإلا احتجزك بدلاً عنهم لإنك المُهرّب.
- أنا مهاجر مثلهم لم يبقَ عندي سوى مئة يورو فقط!

- إما تعطيني المبلغ كاملاً أو اعتقلك.
- وكيف أعرف أنك شرطي بالفعل؟ فأخرج هويته من جيبه وشاهدت دراجتهما خاصة للشرطة ويحملان أجهزة أتصال اللاسلكي بيديهما. أعطيته المبلغ وعدت.

اتصل المصري بعدها: أوقفتكم دورية شرطة وأخذت منكم مئتي يورو.

- نعم بالضبط.
- اخصمها من بقية المبلغ المتبقي بذمتك.
- لكن كيف عرفت؟
- أنه ليس من شأنك. أبقى في مكانك واتصل بأبي مجيد واطلب منه أن يبعث أحداً يوصلكم للبيت.

اتصلت به وقال: واصل المشي بجانب سكة القطار حتى تصل لبركة ماء لأن هناك شخص في طريقه إليك تقدم إليه لكسب الوقت، ولا تخف من شيء لأن كل المناطق قد أصبحت آمنة بعد عبوركم السياج. وصلت البركة وجلسنا بقربها، شربنا الماء وتناولنا الطعام حتى رأيت شخص قادم باتجاهنا يلوح بيده من بعيد. مشينا خلف الشاب بجوار سكة حديد على جوانبها مزارع واسعة، شاهدت شرطي على دراجة نارية فعبرنا الى الجانب الآخر وركضنا باتجاه المزرعة فصعد فوق السكة وهو يصرخ بكلمات غير مفهومة ثم سمعت صوت طلقات نارية. ركضنا داخل المزارع وتعثرنا بالطين حتى طمست أقدامنا بالوحل، سقطت زوجة ولدي الحامل على بطنها وأخذت تبكي وتلطم على وجهها من شدة الألم والشرطي واقفٌ في مكانه قبل أن ينصرف. لأنه لا يستطيع تجاوزها ولا بإمكان الدراجة السير وسط الطين. واصلنا السير وواجهنا نهر يصل ماؤه لما فوق الرُكبة تمكن الشباب من عبوره عوماً وتجاوزناه بصعوبة، ثم أشار بعدها لبيت بعيد: ها قد وصلنا المكان المنشود ذاك هو أمامكم.

صربيا

وصلنا منزلاً كبيراً كان وواسعاً من الداخل يغص بالعوائل الهاربة، يحتوي العديد من الغرف مع صالة كبيرة في الوسط وعلى جانبها مطبخ وحمامان مخصص أحدهما للرجال والآخر للنساء، بقيت فيه لثلاثة أيام للراحة من تلك الرحلة الشاقة قبل الاستعداد لإكمال طريقي باتجاه الحدود. أبو مجيد صاحب البيت رجل ملتحٍ غريب الأطوار كأنه حاقد على كل الوجود ويكره كل شيء حتى روحه، يجلس في دكانه الوحيد في المنطقة بجانب البيت ويبيع السلع بأسعار مضاعفة. تحدثت معه قليلاً ووجدته منحازاً بأفكاره لجبهة النصرة في سوريا. سكن الرجال في غرفة والنساء في أخرى، جلس بجانبي فادي وقال: نريد البقاء معكم لحين الوصول لأننا بمفردنا وبإمكاننا مساعدة العوائل في حمل الأطفال والحقائب.

- أتمنى ذلك وسوف نكمل السفرة معاً.

اتصلت بأبي حمزة وقال: قبل خروجك من صربيا عليك الذهاب الى مركز الشرطة للحصول على الخرتية لجميع أفراد العائلة.

- ما هي الخرتية؟
- مثل هوية إثبات شخصية يكون فيها اسمك ومعلوماتك، وتعدّ لاجئ مؤقت في البلد بعد حصولك عليها.
- وإذا لم افعل!
- لا يمكنك الحجز والمبيت في أي فندق بدونها.
- يوم غد اصطحب الأسرة للحصول على واحدة.
- هناك زخم شديد من كثرة المهاجرين، وقد تبقى بانتظارها لعدة أيام.
- هل يمكنك أن تحصل لي على شقة بدلاً من الفندق؟
- هذا صعب جداً وقريب من المستحيل.
- لماذا؟
- لكثرة الزحام. مئات العوائل تفترش العراء وغصت بهم حتى الحدائق العامة.

الأخرون كان نيتهم البقاء في البيت لفترة أطول للراحة قبل إكمال الطريق الشاق فقال عباس - لا أستطيع البقاء أكثر أريد الهرب في أقرب فرصة لكني أنفقت كل ما جلبت معي وأريد استلام النقود بعد تحويلها من صديقي في بلجيكا. لكني لا أعرف كيف؟

- هناك طريقة واحدة دع صاحبك يحولها لحامد المصري ليعطي منها حصة صاحب البيت ويترك الباقي عنده لحين وصولك.
- وهل تثق فيه!
- ليس لديك سواه.

صديقه يدعى حجي فارس أخبره بانه سوف يأتي من أجله الى صربيا منذ كنا في اليونان، لكنه قد تم احتجازه فيها بعد وصوله لأنها دولة غير منتمية للاتحاد الأوربي لذلك تأخر بعدنا ليومين لحين الإفراج عن صاحبه.

مثلما اتفقت مع المصري سلمت مبلغ أربعمائة وخمسين يورو المتبقي بذمتي الى صاحب البيت وأبلغته بنيتي السفر يوم غد مع مجموعة تضم عشرين شخصاً من عوائل سورية. بقيت بصحبة الشباب لحين غروب الشمس فحزمنا أمتعتنا وتهيأنا للسفر، خرجنا مع المُهرّب نمشي لمسافة قصيرة حتى أوصلنا لشخص آخر، مشينا خلفه بهدوء حتى وصلنا لنهر عرضي منسوب الماء فيه منخفض تمكنا من عبوره بسهولة، صادفنا مسجد صغير مفتوح الباب دخلنا ووجدناه خالياً، استلقى فيه البعض للراحة وبعضهم قضى حاجته في الحمامات وآخرون صلوا قبل المواصلة. أخذ التعب يدب بأجسادنا وخصوصاً النساء وأكثرهن كانت بتول وبدأت قدمي المصابة بطلق ناري تؤلمني خلال المسير فتناولت عصا أتكأ عليها تساعدني على المشي، كنا نتناوب مع الشباب على حمل الأطفال حتى بلغنا هضبة واضحة المعالم جلسنا أسفلها لالتقاط بعض الأنفاس. وصل صبي بعمر ثلاثة عشر عام فسرنا خلفه قرب الشارع العام دون لفت الأنظار. مرت سيارة على الشارع بعد حلول المساء ثم استدارت وعادت مسرعة وتوقفت بالقرب منا، نزل منها أربعة أفراد ركضوا نحونا وطوقونا من جميع الجهات وهم يحملون أسلحة مصوبة باتجاهنا وقال أحدهم: إلى أين ذاهبون؟

- نحن مهاجرون وننوي الوصول إلى العاصمة بلغراد.

رأيت النساء قد أصابهن الخوف والهلع وزوجة ابني الحامل سقطت على الأرض وفقدت الوعي. فصرخت: معنا امرأة في حالة ولادة نحن بحاجة لسيارة إسعاف فوراً. اعتقدت بأنها قد أجهضت الحمل. اتصلوا بالجهاز اللاسلكي ووصلتنا الإسعاف بعد دقائق، حملناها للمركبة حتى وصلنا لمستشفى بسيط لكنه نظيف، خرجت الطبيبة بعد مدة مع المترجم وأخبرتني بأن البنت بحاله مستقرة وقد قامت بأجراء عمليه بسيطة خوفاً على الجنين، نيجة الإجهاد بعد المشي لمسافات طويلة. سألت الشرطي بجانبي عن كيفية الحصول على الخرتية فقال - سوف نقوم بذلك في مركز الشرطة. وصلنا إلى هناك وحظينا بمعاملة جيدة واحترام متبادل، جاء ضابط شرطة وقام بملء الأوراق وكل الإجراءات الأخرى. رأيت الفتى قد القوا القبض عليه يقف وحيداً على جنب سألت الضابط - لماذا قبضتم على هذا الصبي؟

- لأنه مُهرب.

- لكن عمره صغير ولا يمكنكم سجنه.
- نعم سوف نفرج عنه بعد كفالته من قبل أحد أفراد عائلته. هل تعلم لماذا يبعثون الأطفال دون سن الرشد معكم للوصول بكم الى الشارع العام.
- نعم كنت أتساءل عن هذا الأمر في نفسي؟
- لا نستطيع حبسهم لأنهم أحداث. فلو كان معكم مُهرب بالغ لحكم عليه بالحبس لمدة لا تقل عن سبع سنوات ومصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة.

وصلت للعائلة في غرفة الضابط وكان كل شيء على ما يرام. جلبوا لهم الماء والطعام وحليب للأطفال وكل احتياجاتهم الأخرى، بدأ بعدها التحقيق الروتيني وطلبوا هوية الأحوال الشخصية للجميع لكي يتأكدوا بأننا عائلة بالفعل، أبرز لهم محسن هوية سورية وعرفت بأنه نقيب طيار وأخوه فادي طبيب فقال الضابط: يجب احتجازهما ليومين قبل الإفراج عنهما لأنهما بلا عوائل.

- هما مثل ولديّ بالضبط.
- هذا لا ينفع. سوف يلحقون بكم بعد يومين.

قاموا بتصويرنا بعد إكمال إجراءات التحقيق ومنحونا الخرتية التي مدتها ثلاثة أيام أي يجب علينا مغادرة البلد قبل نفادها بأي طريقة. جلست مع الشابين على جنب وتحدثت معهما فأخبرني فادي - نحن أخوّان كان والدنا طياراً في جيش الأسد، وصلنا تهديد بالقتل بعد سيطرة قوات جبهة النصرة على المدينة فتمكن والدي من الفرار والوصول الى النرويج وطلب اللجوء فيها وننوي الوصول إليه.

- وأين بقية أفراد أسرتكم؟
- أمي كبيرة في السن بقيت وحيدة في سوريا لصعوبة طريق التهريب عليها.
- لماذا لم يحاول والدك لم شمل العائلة بشكل قانوني؟
- مثل هذه المعاملات قد تستغرق سنوات قبل الحصول على موافقة الدولة والوضع في سوريا لا يسمح بذلك.
- سجل لي رقم جوالك فلدي سيم كارت صربي اشتريته من أبي مجيد ونحن لم نزل في منطقة حدودية يمكنني الاتصال بك بواسطته، يجب عليك إبلاغي فور خروجكما.

قضيت ليلتي في السجن ثم نقلونا في الساعة السادسة صباحاً بمركبات الشرطة الى المحطة، لأن القطار الذي يتجه الى بلغراد يصل في تمام الساعة السابعة. صعدنا فيه بعد قطع التذاكر وانطلق في الساعة التاسعة. ركبت عائلة سورية من المحطة التالية تجاذبت أطراف الحديث مع رب الأسرة، عرفت أن الشرطة الصربية قد قبضوا عليهم واحتجزتهم مثلما فعلوا بنا وهو ينوي الوصول الى والده الذي ينتظره في برلين. استمرت الرحلة ست ساعات اتصل أبو حمزة في تلك الفترة وأخبرني بأنه سوف يكون بانتظاري في محطة قطار العاصمة.

بلغراد

وصلت العاصمة تنتشر فيها عشرات الحدائق والمتنزهات تغص بألاف العوائل يفترشون الحدائق والشوارع والأرصفة، بعضهم داخل خيام ملونة صغيرة وآخرون ينامون تحت قطعة قماش مربوطة لأغصان الأشجار لأنهم لم يتمكنوا الحصول على الخرتية فلا يمكنهم السكن في فنادق. بحثت عن فندق وحجزت فيه ثم عرفت أن عباس كان لم يزل في البيت بانتظار تحويل النقود. في المساء اتصل المصري - كيف حالك يا أبا علي.

- بخير.. لقد. ثم قاطعني بالكلام قبل أن أكمل - لقد تم القبض عليكم من قبل الشرطة في الطريق وهذا بسبب المُهرّبين لذا سوف أخصم ألف وخمسمئة يورو من المبلغ، وهي حصة المركبات التي كان من المفترض أن تصلكم الى النقطة التالية.
- شكرا لك.. لكن كيف عرفت!
- هذا عملي يا رجل.
- كيف يمكنني الوصول الى النمسا؟
- سوف أرسل لك رقم صديق يقوم بذلك.
- هل هو أمين؟
- وهل تعتقد أن أتركك مع عائلتك بأيادٍ غير أمينة! طلب الجديد الفي يورو للنفر الواحد للوصول بعائلتي الى العاصمة فينا وهذا مبلغ كبير فلم يحصل الاتفاق بيننا.

بقيت في الفندق وبدأت حساباتي ووجدت أن أموالي لا تكفيني الوصول الى النمسا، فلو طلب ألف وخمسمئة يورو للشخص الواحد يكون المبلغ أكثر من عشرة الاف يورو وكل ما تبقى بحوزتي ستة الاف فقط. وقعت في حيرة من أمري. لذلك يتوجب عليَ الشرب بكمية معقولة والتفكير في حل مناسب للخروج من الأزمة. نزلت للسوق جلبت قنينه نبيذ مع مختلف المزات وجلست أفكر بروية ثم اتصلت بأبي حمزة - أين أنت يا صديقي.

- في السوق لشراء بعض الحاجيات.
- تعال لنشرب كاسين معاً في الشقة. فوصل بعد مدة.

- ما هو أقل مبلغ لتهريب الشخص الواحد الى النمسا؟
- ألف وخمسمائة يورو مع التعهد بعدم البصمة في هنغاريا.
- آخر ما يمكن خصمه فلم يبقَ معي الكثير من المال.
- ألف وثلاثمائة يورو. وأقسم لك بأني قد قطعت حصتي لأني أحببتك وأتمنى مساعدتك.

- يتطلب تهريب عائلتي أكثر من تسعة الاف يورو ومعي سته الاف فقط. أرجو أن يكون ألف يورو للفرد.
- هذا مستحيل صدقني. ولا تجد شخصاً يُهرّبك بهذا السعر.
- إذا دعني أنتظر وصول صاحبي ولكل حادثٍ حديث.

كان كل همي ألا أكون مديناً في الغُربة لأني لا أعرف مصيري ولا كيف سيكون وضعي الاقتصادي هناك. فكرت أن يصل بي المُهرّب الى الحدود الهنغارية ويدلني على السبيل وأعتمد على نفسي مع أولادي للوصول الى النمسا، لكن الطريق غير آمن ولابد أن أتوه فيه بعد ما سمعت بأنه يمر في غابات وأحراش ومستنقعات. وإذا وقع مكروه لعائلتي فلن أسامح نفسي ما حييت.

خرجت عصراً في ذلك الوقت الذي يسبق الغروب لكي أتعرف على المدينة وحركة الناس وقت النهار والليل. أتفقد الدولة التي أتواجد فيها كعادتي فمركز المدينة قريب من الفندق الذي أسكن، لطافة الجو وكثرة البشر تحفزك على المشي لمسافات طويلة دون شعورك بالتعب، يتناهى لسمعك بين فترة وأخرى لحن لمعزوفة على الكمان أو الساكسفون يؤديها عازف وسط الطريق. رأيت مطعم لبناني مزدحم تحتك روائح الطعام التي تنبعث منه على الدخول، وجدته يقدم أكلات شرقية مختلفة فطلبت الكبسة مع تبولة وبقية مقبلات لبنانية لذيذة. شاهدت في نهاية الشارع المزدحم بناية ضخمة من القرميد الأبيض تعلوها قبب صغيرة وتغطيها قبة كبيرة خضراء بحواف صاجيه كأنها صدفة بحر تنتصب فوقها صلبان طويلة مذهبة، تحيطها الحدائق الواسعة والنوافير وتنتشر فيها أعمدة إنارة خافتة من كل جانب عرفت بأنها كنيسة القديس "سابا"، تشابه بتصميمها كنيسة آية صوفيا في إسطنبول قبل تحويلها الى جامع بعد الفتح الإسلامي على يد محمد الفاتح، وحُولت الى متحف علماني بعد ثورة كمال أتاتورك وتم إرجاعها مؤخراً الى جامع على يد أردوغان. شعرت بصعوبة في التنفس وألم شديد في صدري فقررت العودة الى الشقة للراحة فطريق السفر ما زال طويل.

تناقشت مع العائلة عما تبقى بحوزتنا من أموال وبفكرة نقلنا الى حدود هنغاريا والاعتماد على أنفسنا في تكملة الطريق، سمعت آراء متعددة قبل أن يتفق معي الجميع في النهاية فليس لنا بدٌ سواها. خرجت في اليوم التالي واشتريت لهم بعض الملابس واحتياجات أخرى، اتصل صاحبي وقت الغروب: لقد وصلت الى صربيا وأجلس بين مئات العوائل في الحديقة العامة. وصلت إليهم ووجدتهم مرهقين وفي حالة يرثى لها سألني - هل قبضت عليكم الشرطة؟

- نعم.. وأحمد الله وأشكره لأنهم فعلوا ذلك فقد منحوني الخرتية ونقلوني بسيارتهم الى محطة القطار دون مقابل. وأنت ماذا حصل معك؟
- أخذونا قسراً الى مرآب وأجبرونا على ركوب باص متجه للعاصمة.
- وهل منحوك الخرتية؟

- لو حصلت عليها لما كنت جالساً في هذه الحديقة.
- ولماذا لم تحصل على واحدة!
- ذهبت الى مركز الشرطة وأبلغوني العودة بعد ثلاثة أيام لكثرة عدد المهاجرين الذين يقدمون عليها كل يوم.

أخذتهم معي الى الشقة اغتسلوا وأكلوا وأخذوا قسطاً من الراحة وخرجوا في المساء. جاءني بعد ذلك البصري برفقة سنان وقال: لقد قررنا الذهاب لوحدنا عن طريق برنامج تحديد المواقع وإذا قبضت علينا الشرطة واجبرونا على طلب اللجوء في هنغاريا سوف نتوجه الى ألمانيا لأنها الدولة الوحيدة في أوربا لا تعترف بالبصمة في هنغاريا، وإذا استطعنا الوصول الى هدفنا فسوف نستقر في النمسا. ذهبت معهما الى الموقف وركبا الباص الذي يأخذهما لأخر مدينه حدودية وودعتهما بالأحضان وقبلات ودموع كأني أشيع أبنائي الى طريق مجهول دون معرفة مصيرهم وما سوف يلاقونه.

سألت صاحبي عباس بعد ذلك: ما هي خطتك؟

- لقد اتفقت مع أحدهم أن يأخذني الى بلجيكا وأدفع له المال بعد الوصول وأنت ماذا ستفعل؟
- ليس لي خيار سوى الذهاب الى هنغاريا وطلب اللجوء فيها لأن أموالي لا تكفيني للوصول الى النمسا.
- سوف اتصل بأهلي في العراق وأطلب منهم النقود وأعطيك ما تحتاج.
- أشكرك لكني لا أريد أن يكون في رقبتي دين ربما لا أستطيع تسديده.
- هو لك لأنك بمنزلة أخي الكبير.
- نعم بالتأكيد.. لكني اتخذت قراري وانتهى الأمر. ودعته بالأحضان والدموع فدوام الحال من المحال.

غادرت الشقة في اليوم التالي بعد انتهاء فترة الخرتية لذا يتوجب عليَ السفر ومواصلة الرحلة بأي طريقة، ذهبت مع العائلة الى الحديقة العامة وسمعت رنين هاتف أبنتي، تحدثت لفترة طويلة ولاحت ملامح الامتعاض على وجهها ثم بكت بعد إنهاء المكالمة فسألتها: ما الأمر؟

- زوجي يرفض ذهابي معكم لإنه يقول إذا قبضوا علينا في هنغاريا سوف نُجبر على طلب اللجوء فيها ونجبر على الذهاب إلى ألمانيا فيما بعد.
- نعم. وما المشكلة بالإمكان تقديم طلب لم شمل بعد الوصول الى هناك!
- إجراءات لم الشمل والحصول على الإقامة فيها صعبة للغاية ويتطلب الكثير من الوقت قد يصل لسنوات.

اتصلت به - هل تقبل زوجتك أن تبقى لوحدها مع طفلتها؟

- أجل. أفضل من بقائها وحدها في ألمانيا لسنوات.
- أبعث الي بعض المال لنصل معاً.

- لم يبقَ عندي المزيد فقد بعثت لك كل ما عندي.

ضاقت بي السُبل وأصبحت في وضع قلق ومحرج للغاية، لن أستطع ترك ابنتي تسافر لوحدها في طريق مجهول ولا يمكنني البقاء معها لمدة أطول بعد نفاد الأموال وانتهاء فترة بقائي المحددة. فاتجهت لأبي حمزة فلم يكن عندي غيره - أضع على عاتقك أمانتين الأولى أبنتي عليك إيصالها الى النمسا.

- حسناً. بعد يومين يكتمل العدد وننطلق.
- لكن مدة الخرتية قد نفدت عندها واضطرت لمغادرة الشقة، أين تذهب هل تبقى مع أبنتها في الشارع!
- لا عليك شقتي واسعة سوف اتركها لها لحين موعد السفر.
- وأين تذهب؟
- لا عليك عندي أصدقاء سوف أبقى برفقتهم. والأمانة الثانية؟
- جواز سفري يبقى عندك لحين وصولي.
- كيف احتفظ بجواز سفرك وأنا كل يومٍ بدولة!

هنا تذكرت لورنس الحديدي ذلك الأنسان الطيب والصادق في كل معاملاته معي، طلبت منه ذلك فوافق في الحال، ثم أرسل عنوانه الكامل وبعثت الجواز إليه وسألته - كيف بإمكاني الوصول الى الحدود الهنغارية؟

- خالي. لدي صديق يمكنه نقلك اليها مقابل ثلاثة الاف يورو.
- لكنه مبلغ كبير لم يتبق لدي سوى ألفين وأربعمائة يورو عن كل العائلة.
- هذا لا يهم سوف أتنازل عن حصتي من العملية.
- وماذا أفعل؟
- اركب باص من الموقف الى مدينة سوبتيكا الحدودية واتصل بي بعد وصولك.

في السادسة عصراً ركبت الحافلة ووصلت المدينة واتصلت به. جاءت سيارة نوع أوميغا وأخذنا السائق عبر طرق ترابية فرعية حتى بلغنا جسراً للقطار. ركن جانباً وقال: ابقوا في مكانكم سوف تصلكم بعد القليل من الوقت مركبة أخرى وتأخذكم الى النقطة التالية. جاءت الثانية وسار السائق في طريق صحراوي موحش خالٍ من السيارات ولا توجد مدينة بجانبه حتى وصلنا المكان، نزل من المركبة وأطلق صفيراً بيده فخرج من حفرة قريبة شخصان شكلهما مثير للسخرية، كان أحدهما طويل القامة ونحيف والآخر قصير بدين وهما ثملان يترنحان ويتحدثان بصعوبة، سارا في فروع ضيقة داخل مزارع واسعة وكنت أرشدهم على الدرب أحياناً وهما يمشيان خلفي يتحدثان بكلام غير مفهوم يطيح أحدهما وأحمله ليسقط الآخر. أخذا يتعاركان ويصرخان بكلام غير مفهوم فضرب الطويل النحيف صاحبه بلكمة أسقطته

أرضاً وأفقدته الوعي، سحبه من يده دون فائدة فتركه نائماً ممدوداً وسط الطريق. جلست على جنب مع العائلة وضحكنا حد البكاء، هذا ما كان ينقصني فقط "شر البلية ما يضحك".

الدرب خالٍ تماماً ولا يشير بأنه طريق هروب الاف المهاجرين، أين مئات عوائل اللاجئين الذين رأيتهم في طريقي. هل وقعت ضحية عملية نصب واحتيال مرة أخرى، فكرت ربما هناك طرق مختلفة يتبعونها فواصلت المشي مع عائلتي لأكثر من نصف ساعة. مع حلول الظلام وصلنا لسياج BRC أشار الطويل بيده صوب نقطة ضوء بعيدة فقال وهو يتلعثم – هذاااا سووور الحدود مع هنغاررررريا وذلك الضووووء البعيد محطة قطار ففففففي مدينة سجد، تسير بخط مستقيم باتجاهه حتتتتتى تصل إليه ومنه تستقلون القطار الى العاصمممممة. أعطيته النقود وضعها في جيبه ونام في مكانه.

قبل محاولة عبوري رن هاتفي الجوال وشاهدت رقماً غريباً على الشاشة كان سنان: أين وصلت يا أبا علي؟

- على الحدود الصربية.
- أرسل لي رقم جوال أبي غسان لأمر طارئ.. أرسلته وعبرت.

هنغاريا

شعرت بالقلق والخوف الشديد بعد اجتيازي السياج الحديدي مع عائلتي ووضع قدمي في مكان مجهول لوحدي دون مساعدة أحد. هي الخطوة الأولى باتجاه اللامكان فلقد دخلت للتو دولة جديدة غريبة لا أعرف نظامها وسياستها وعادات مجتمعها وتقاليده. ثم ماذا سأفعل إذا كان هذا الدرب لا يصل الى محطة القطار والليل قد هبط لتوه؟ ليس لدي خيار سوى المشي للوصول بأقرب وقت ممكن. عاد الوجع في صدري وأصبحت نوباته متقاربة وشديدة لكني تمالكت نفسي ولم أخبرهم عنه في هذا الوقت الحرج فطلبت منهم الجلوس قليلاً للراحة.

تعبت حالتي النفسية كثيراً كنت أمشي خطوة للأمام وخطوتين للوراء. فكرت بأبنتي كيف تركتها وحيدة مع طفلتها في الغُربة هل أعود اليها أم أكمل طريقي مع العائلة؟ حدثت زوجتي بالموضوع وقالت: هي لها ربٌ يحرسها ويحميها لحين وصولها مثلما ندعوه كي يساعدنا لحين وصولنا بسلام، هذا مكتوب وعلينا استيعابه ففي رقابنا مصير أولادنا وأحفادنا وعلينا إيصالهم لبر الأمان. بقيت أمشي أمامهم باتجاه الضوء دون أن أنحرف عنه لكنني لم أثق بكلام الطويل، يراودني الشك دائماً بأنني أسير باتجاه المجهول واللا عودة. أخذت النساء تمشي بخوف شديد بعد وصولنا لمنطقة غابات وأحراش ومستنقعات. لا أعلم ما الذي قد أصادفه ربما حيوانات مفترسة، أفاعي، حشرات قاتلة. بقينا نسير وسط الضياع وعيوننا صوب نقطة الضوء الضعيفة والبعيدة، كان جوالي يعمل ومعي شاحن إضافي قد هيأته للطوارئ.

جلست قليلاً مع عائلتي ننال قسطاً من الراحة وسط الأحراش وعتمة الليل الموحشة وحيوانات غريبة تعوي بالقرب منا بين فترة وأخرى. دخلت على برنامج المواقع العالميGPS لمعرفة موقعي بالضبط وكنت داخل حدود هنغاريا بالفعل، لكن المنطقة غير مثبتة بالتفصيل على البرنامج لأنها حدودية وعبارة عن غابات نائية. أمرت العائلة بلبس الجزمات وما أن وضعت أحداها في قدمي حتى عاد شريط الذاكرة قبل عشرات السنين للعام ثمانية وستين تحديداً، كانت والدتي تلبسني مثلها عندما كنت اذهب للدوام صباحاً مع أخي رعد إلى مدرسة الأمام الصادق الابتدائية الأهلية الموجودة لحد الآن في منطقة الناظمية في الكرادة خارج ببغداد. كانت تحمل أحذيتنا بيدها ونحن نمشي في الطين بجزماتنا لحين بلوغنا للشارع العام فتبدلها بالاعتيادية ونقف ننتظر وصول باص المدرسة المرسيدس "١٨ راكب" الذي يقوده أبو تايه. ونجدها واقفة بانتظارنا بعد عودتنا وهي تحمل جزماتنا بيدها لتبدلها ونعود راجعين للمنزل. لم يكن يخطر ببالي ارتداء الجزمة مرة أخرى في مثل هذا المكان البعيد عن أمي مطلقاً.

واصلت المشي لأكثر من ساعة ولم يزل الضوء بعيداً كأنني أمشي باتجاهه وهو يركض مبتعداً عني. كنت ادعوا الله في سري وصول الشرطة ليقبضوا علينا ثم ينقلونا الى المركز وانتهي من هذا الامتحان الصعب الذي وضعت نفسي فيه. شاهدت من بعيد ضوء سيارة تمشي على مهل ثم انطفأ فجأة فطلبت من عائلتي الجلوس والهدوء لكسب القليل من الراحة ومعرفة ما الذي سوف يجري بعدها. بدأ الأطفال يبكون من التعب وأحست بتول بالإرهاق وضعت يدها على بطنها وهي تئن وتبكي ولا تتكلم. ولداي علي وحمودي تعبا أيضاً لأنهما يحملان الأطفال طوال الطريق دون مساعدة أحد.

جلسنا قليلاً ولم يحصل شيء فأشرت لهم بالمواصلة. وبعد مدة قصيرة لاح ضوء ساطع باتجاهنا. رأيت خمسة أفراد من الشرطة بينهم امرأة واقفين أمامنا يحملون مصابيح قوية ويشهرون بوجوهنا الأسلحة، سألني الضابط: من أنتم؟

- نحن مهاجرون.
- الى أين ذاهبون؟
- نريد عبور الحدود إلى المجر وطلب اللجوء فيها.
- من هؤلاء الذين معك؟
- أنهم عائلتي.
- أنت المُهرّب أذن.
- أنا رب الأسرة اعتمدت على نفسي ونظام GPS فقط.
- أحدهم المُهرّب.
- كلا.. إنهم أولادي وزوجاتهم وهؤلاء الأطفال أحفادي.

هدأت من روع العائلة ـ لقد وصلنا لبداية النهاية، سوف يأخذوننا الى مركز الشرطة ونبصم فيه كما حصل معنا سابقاً وهذا ما نريد. بعد مدة وصلت سيارة بيكب دبل قمارة صعدنا في حوضها سارت لدقائق حتى وصلنا لمصدر الضوء وكان يسطع محطة تعبئة وقود بجانب محطة القطار بالفعل. كل المكان أشبه بقرية مهجورة فيها بعض البيوت المتناثرة فلم أرَ شخصاً ولا مركبة تمشي طوال تواجدنا على الطريق العام حتى وصلنا للمركز. أخذوا النساء لتفتيشهن من قبل شرطيات ووضعوا الرجال في غرفة أخرى وأمرونا بخلع ملابسنا بالكامل وتفتيش حقائبنا وكل ما نحمل فيها من أغراض، كان بجيبي دفتر خدمة عسكرية فسألني الضابط: هل هذا جواز سفر؟

- كلا. أنه دفتر خدمة عسكرية أحمله معي لإثبات شخصيتي والدولة التي أنتمي إليها.
- وما هذا الشيء الغريب الذي يشبه كتاب عتيق؟
- إنه هدية من صديق قديم.

أخذوا كل شيء وعرفت بأنهم سوف يعيدون حاجياتنا بعد إكمال الإجراءات وإطلاق سراحنا. قاموا بوضعنا في سجن عبارة غرفة صغيرة خالية ما عدا غطاء قذر ذو رائحة نتنة مفروش على الأرض نمنا عليه واستيقظنا صباح اليوم التالي نشعر بجوع شديد. طلبت الطعام فأحضر أحدهم سندويشات فيها لحم وردي اللون - ما نوع هذا الطعام؟

- إنه لحم خنزير.
- تعلم بأننا مسلمون ومحرم علينا أكله!
- هذا الطعام المتوفر عندنا فقط.
- معنا أطفال يبكون من الجوع أجلب لنا أي شيء آخر.
- أنتَ لست في مطعم لأحضر لك ما تحب وتشتهي.

لم نأكل وبقينا نتضور جوعاً فطلبت بسكويت وحليب للأطفال بعد بكائهم من شدة ولم أحصل عليه. وصل مترجم جزائري الجنسية بعد مدة فقلت له: أشعر بجوع شديد مع عائلتي وبقية الأطفال لأننا لم نأكل منذ يومين وقد اعطوني لحم خنزير وأجبروني على أكله مع علمهم بأني مسلم. تحدث معهم ثم رجع.

- يقولون بأنكم متجاوزين حدود البلد بطريقة غير شرعية ومن يقوم بذلك عليه أن يأكل ما يحصل عليه لأنه ليس في فندق خمس نجوم.

- أريد شراء الطعام بمالي الخاص!

- لا يوجد عندهم غذاء للبيع

- أنا لاجئ وليس في نيتي البقاء والاستقرار في بلدكم؛ بل العبور منه لأوربا، لماذا يسجنونني مع عائلتي بلا سبب؟ تحدث معهم وأخبرهم بذلك لكن دون فائدة.

قاموا بنقلنا الى موقف خارجي تابع للسجن غرفة واسعة مثل مخزن فيها الكثير من الأسرّة المكسرة والأغطية البالية. وصل ضابط مع المترجم بعد مدة - عليكم جميعاً توقيع أوراق مع البصمة تؤكد بأنك مع عائلتك قد طلبتم اللجوء الإنساني في وطننا.

- لكني لا أريد اللجوء في بلدكم. أطلقوا سراحي وأمهلوني ساعات فقط للرحيل.
- إذا لم تبصموا على هذه الأوراق سوف نحبسكم لثلاثة أشهر ثم نرجعكم من حيث أتيتم مع منعكم من دخول الأراضي الهنغارية مجدداً.

كانت مجرد أسئلة عديدة لكل أفراد العائلة، اسمك، عمرك، محل إقامتك، بلدك، من أين دخلت للبلد والى أين تنوي الذهاب، تعهد بالمغادرة.. ثم البصمة.

بت ليلتي في المراب واستلقيت على فراش قذر بعد وضع راسي على الوسادة تذكرت السجن هناك في وحدتي العسكرية في البصرة صباح يوم ١٩٨٨/٨/٨، في المساء صدر قرار وقف إطلاق النار بين البلدين. كانت الشوارع تغص بالناس التي تحتفل بانتهاء الحرب الطاحنة

لغاية الصباح وأنا مسجون في الوحدة، أكملت سنة ونصف في السجن حتى أُطلق سراحي وتم تسريحي من الخدمة بعد دفعي مبلغ ثلاثة الاف وخمسمئة دينار. تسرحت في عام تسعين قبل غزو الكويت وحرب الخليج الثانية. انتهت الحرب بعد ثمان سنوات والموت يخطف أرواح مئات الاف الشباب بعمر الزهور وملايين الجرحى ممن فقد ساقه أو يده بلا ذنب، ومليارات الدولارات كان من الممكن أن تبني بلد متكامل الخدمات. ما هذا الهراء والضحك على الذقون وقعنا ما بين ضراط البوابة الشرقية وحمايتها ومحاولة تصدير الثورة للعراق. ضحكت على نفسي بعد انتهائها وشعرت بأني كنت جزء من مهزلة عالمية كبيرة كلما تذكرت أن شيفرات الجيش العراقي والإيراني تملكها أمريكا وفرنسا تعطيها لأحد الجيشين حسب الحاجة بما يضبط التوازن بينهما لكي لا يتمكن طرف من النصر على الآخر، وتستمر الحرب طوال تلك السنوات. وتستمر مليارات ثمن الأسلحة. أحس بأننا بحاجة لعفطة طويلة تمتد ٢٨٨٠ يوم. انطلقت بعدها أحداث الانتفاضة ثم وفاة والدي بالجلطة الدماغية، وفي شهر نيسان من عام ١٩٩٢ جرى منعطف قوي في حياتي وتدهورت حالتي الاقتصادية بعد فرض الحصار، عدت للسكن في بغداد مع عائلتي وابنتي سرى وعلي بعد إيجار منزل في مدينة الثورة وانتقلت الى آخر أدني منه حتى بلغت لمرحلة لم أتمكن من توفير لقمة العيش ومبلغ إيجار الدار فعدت للسكن مع أخي لفترة في القطاع ٥٨، صبغت السيارة للأجرة وكنت أعمل سائق تاكسي ليل نهار. حتى قرر الأخوة بيع الأراضي والعقارات التي كان بعضها محجوز لدائرة الضريبة وقسمنا الأموال على جميع الورثة البالغ عددهم عشرة ورثة فكانت حصتي قليلة ولن تنفعني بشيء فشغلت غرفة من منزل أخي وسكنت فيها. قمت ببيع سيارتي بمبلغ مئة وعشرين ألف دينار في فترة هبوط الأسعار الحادة. حصلت على عربة دفع من صديق في زمن الحصار القاسي وعملت بها في علوة جميلة وتمكنت من العيش مع عائلتي بصعوبة بالغة. واقتسمت بعدها البيت مع أخي في العام ثمانية وتسعون بعد أن جمعت القليل من المال نتيجة عملي المتواصل. اضطررت العمل بخياطة الأكياس "الكواني" في جميلة قبل أن أتجه للعمل في الصحافة والإعلام عن طريق الصديق الإعلامي حازم العزاوي الذي علمني أصول المهنة واحترافها. وتعرفت بعدها على الصديق فاضل الذهبي الذي كان يعمل في جريدة لاتحاد النساء واستمريت في العمل معه لسنوات طويلة.

في الساعة العاشرة صباحاً استيقظت على بكاء الأطفال، سألت أحد الحراس - هل يتوفر أي نوع من الطعام لسد جوعهم؟ فجلب السندويش نفسه أعطيته لهم مضطراً وتناولوه بالكامل.

-هل شبعتم يا جدي؟

- نعم بالتأكيد.

- وهل طعمه لذيذ؟

- نعم أنه شهي ونريد سندويشاً آخر!

بقينا ننتظر للرابعة عصراً حتى وصل باص يشبه باص المدارس وصعدنا فيه، حتى وصلنا مركز شرطة آخر وركبت معنا عوائل أخرى وبقي يدور على مراكز الشرطة في البلد، وبعد كل توقف تركب معنا مجموعة من اللاجئين مثل حالتنا حتى امتلأ بالكامل. هطل مطرٌ غزير حتى بلغنا قرية داخل غابة فيها مركز احتجاز كبير ذات بوابة واسعة ويحتوي على الكثير من الكرفانات في الداخل.

بعد الفحص الطبي وتوقيع العديد من الأوراق جمعونا في كرفان واسع، وقف ضابط يتحدث وبجانبه مترجم يتكلم بروتين معروف عن حقوق الإنسان والمواثيق الدولية وقال بعدها: أنتم لاجئون في هذه الدولة وعليكم احترامها والالتزام بقوانينها وعدم مخالفتها والتقيّد بالشروط المفروضة وإلا سوف يكون الحساب شديد. رفعت يدي وتكلمت بصوت عالٍ: سيادة الضابط لقد بقيت مع عائلتي وأطفالي ليومين في الاحتجاز نشرب الماء فقط دون أن نأكل وجبة واحدة وبعد المطالبة بالطعام اعطوني لحم الخنزير المحرم علينا أكله! نعم نحن لاجئون لكننا بشر ونتمتع بحقوق الإنسان التي كنت تتحدث عنها قبل قليل. لقد هربنا من أوطاننا التي تستعر فيها النيران وجازفنا بحياتنا للوصول الى بلدان تحترم الإنسان لإنسانيته فقط بغض النظر عن شكله ولونه وقوميته وعرقه وطائفته ودينه. لكنني أصبت بصدمة شديدة حين عرفت أن كل ما تنادون به هي مجرد شعارات وهميه تصدروها للخارج صدقناها وآمنا بها حتى جئنا مع عوائلنا ننشد تلك الحقوق التي تزعمون بأنكم تتخذونها قانوناً يُسير طريقة حياتكم، لكننا للأسف وجدنا كل شيء مغايراً ومختلفاً عما سمعناه عنكم! حكوماتكم كاذبة ولا تختلف عن كذب حكوماتنا التي تسببت بهروبنا والمجازفة بأرواحنا للوصول لبلدانكم. عندما بقيت أتضور جوعاً مع أطفالي في بلدكم عرفت بأنكم كذابون مثل حكوماتنا ولا تختلفون عنها بشيء ويتوجب علينا الهرب من كذبكم الى حكومات صادقة عسى أن نجدها في طريق الهجرة. صفق الجميع بعد كلامي وهتفوا مطالبين بحقوقهم المشروعة. هز رأسه وهمس للمترجم الذي قال: سوف نوفر لكم الطعام وكل ما تحتاجوه لحين مغادرتكم البلد.

أكملوا أوراقنا ومنحوني كرفان خاص بعائلتي مع معلبات الطعام مختلفة الأشكال والأصناف. وعرفت أنهم سوف يقومون بنقلنا الى مركز كبير للاجئين في مدينة دوروك. استيقظت في الصباح عشرات الرجال والنساء يصطفون في طابور طويل أمام منضدة يجلس خلفها طبيب، اكتمل الفحص الروتيني بعد ساعات ثم أعطوني ورقة خاصة تؤكد إجراء فحوصات طبية لازمة. نقلونا بباص كبير بقي يسير لمسافة طويلة حتى وصلنا لمحطة القطار في مدينة "سجد" التي قبضوا علينا فيها. ارجعوا لنا هواتفنا وكل ما أخذوه سابقاً، خابرت ابنتي بعد أن وجدتها متصلة بي لأكثر من عشرين مرة وسألتها عن حالها، قالت - بعد خروج محسن وفادي من السجن اتصلوا بي والتقيت بهما وكانا أخوين أصيلين اتصلوا بي وبقوا بجانبي للآن هل تريد أن تكلمهم.

- نعم.
- كيف حالك يا عم مشتاق لك جداً.
- أهلا يا محسن كيف حالكم أتمنى أن تكونوا بخير!
- بأفضل حال.
- شكراً لمساعدتكم أبنتي وأوصيكم بها خيراً فهي وحيدة.
- لا توصينا على أختنا. نحن الآن في مدينة حدودية سوف نستقر فيها قليلاً ثم نكمل رحلتنا للنمسا.
- ونحن متجهون الى برلين وسوف نكون على اتصال مستمر.
- إلى اللقاء.

اتصل أبو غسان بعد ذلك: كيف حالك يا أبا علي؟

- أهلا بكَ. الى أين وصلت؟
- أنا في النمسا مع سنان والبصري وصلتهما بعد اتصالهما وكانا بحاجة ماسة للنقود من أجل إكمال السفر، ساعدتهما ببعض المال وسافرنا معاً حتى وصلنا الى فيينا.
- هل بصمت في هنغاريا.
- كلا، لأن صديقي حجي فارس قد أرسل الي مهرباً استطاع نقلي الى النمسا مباشرة، لكنهما قد اضطرا على البصم فيها.
- حسناً الى اللقاء.

الهايم في دوروك

وصلنا مدينة دوروك بعد ثلاث ساعات من رحلتنا في القطار. ركبت الباص بحسب العنوان حتى وصلنا للهايم الذي يقع على أطرافها. كان محاطاً بسياج BRC تعلوه أسلاك شائكة وبرج مراقبة. في الاستعلامات قاموا بكتابة الكثير من الأوراق وتسجيل أسماء العوائل وتصويرهم ثم توزيعهم على الشقق. وسطه ساحة كبيرة وعلى اليمين بناية عالية تضم شقق متعددة، وشماله سوبر ماركت صغير وحديقة واسعة تنتشر فيها ألعاب الأطفال.

نقلونا للداخل في قاعة كبيرة وصل بعدها العديد من الموظفين وبرفقتهم مترجم، جمعونا على شكل طابور طويل حتى وصلني الدور، سجل الموظف اسماء عائلتي مع تخصيص فراش وغطاء ومعلبات متنوعة لكل فرد منهم ثم سلمني مفتاح يحمل رقم الشقة المخصصة فأخذتهم وتسلقت الدرج، فتحت الباب ووجدت الشقة عبارة عن مكب للنفايات، المجاري محطمة وتسيل على الأرضية مع الروائح الكريهة التي لا تطاق، زجاج الشبابيك مهشم، مطبخ قذر لا يمكن دخوله من شدة رائحة عفونة الطعام المتفسخ. قمنا بتنظيفها على عجل حتى أصبح من الممكن العيش فيها وقضيت ليلتي البائسة ولم يغمض لي جفن لحين بزوغ شمس الصباح.

عرفت من بعض النزلاء أن الفطور يتم توزيعه في الساعة الحادية عشر على شكل طابور طويل يصطف فيه الجميع، وقفت خلفهم حتى وصلني الدور وحصلت على خبز ومعلبات وحليب ومربيات. دخلت الى السوبر ماركت وجدت الرجل الذي يديره يتحدث العربية كان متضايقاً وعصبي المزاج فلم أطل الحديث معه اشتريت ما احتاج وعند الدفع قلت له: هل أنت عربي؟

- نعم.
- كيف وصلت الى هنا وما هي أحوالك؟
- أكيد أنك من النزلاء الجدد الذين وصلوا يوم أمس سوف نلتقي في يوم آخر ونتحدث.

أكملت وجبة الإفطار مع العائلة ورجعت إليه سألته - كيف يمكنني تصريف العملة لأن معي الدولار وأريد استبداله بفرونت مجري؟

- يوجد محل صيرفة وحيد في هذا الهايم لكنه مغلق في مثل هذا الوقت ويستبدل العملة أقل بكثير مما تجده في السوق.
- كيف يمكنني الذهاب إلى السوق؟

- تخرج من بوابة الهايم بشكل طبيعي ثم تصعد الباص المتجهة يسارك حتى تصل المدينة تجد فيها سوبر ماركت كبير وأسعاره مناسبة وبجانبه محل للصيرفة.
- لقد عرفت بأنك عراقي من بداية حديثي معك!
- نعم أنا من بغداد وعائلتي لم تزل هناك.
- ولماذا بقيت هنا ولم تحاول السفر لدولة أوربية تكون الحياة فيها أفضل؟
- أنا غير مستقر في هذا المكان، وصلت لاجئ وتم احتجازي هنا مثلكم لفترة وكانت في نيتي الذهاب إلى النرويج ثم خرجت ووصلت الى أوسلو وبقيت فيها لسته أشهر حتى اكتشفوا بأني قد بصمت في هنغاريا وطلبت اللجوء فيها فأجبروني على العودة اليها والاستقرار فيها.
- وهل هذا سجن أم كامب؟
- هو أشبه بالسجن عليك البقاء فيه لثلاثة أشهر بعد أن يمنحوك الإقامة الإجبارية.
- وبعد تلك المدة؟
- يكون من حقك السفر لأي مكان. لكن إذا قررت البقاء فلن تجد فرصة عمل ولا ضمان صحي ولا مساعدات ولا أي شيء آخر.
- كيف يمكنني الخروج من الهايم؟
- إذا شئت السكن في شقة يجب عليك دفع إيجارها من حسابك الشخصي، ولو أردت تسجيل أبنائك في مدارس يكون على حسابك أيضاً، كل شيء تريده عليك الدفع من أموالك الخاصة دون أي دعم من الدولة.
- كيف تمكنت من البقاء والعيش في هذا المكان؟
- منحوني الإقامة بعد عودتي وحالتي المادية جيدة في العراق فقد كنت ضابطاً في الجيش العراقي السابق، فأخذت موافقة مركز الاحتجاز لفتح هذا المشروع الصغير بعد وصول المبالغ المطلوبة من الأهل لتوفير لقمة العيش، لكني لم أعد أحتمل البقاء في هذا المكان وأفكر بالهرب بأية وسيلة ممكنة.

رجعت للشقة أفكر بصمت أين تأثير الاشتراكية وحلمها الأمثل في إحلال العدالة والمساواة بين جميع أفراد المجتمع، عشرات السنين وحكومات هذه البلدان تعمل على تجذير هذه الفكرة من رياض الأطفال وحتى الجامعات وتخرجت أجيال ترسخت في أذهانها أفكار تربت عليها منذ الصغر، لكنها لم تحتفظ بذلك النظام الدخيل وتلاشت الأيدولوجيات كأنها شيئاً لم يكن مثل دقيقٍ بعد هبوب عاصفة، تحولت هذه البلدان كأنها مكب نفايات للدول الأوربية المتقدمة في كل شيء والتي اعتمدت النظام الرأسمالي كنظام حكم من الأساس. لكن من يقول بأن الاشتراكية دخيلة على فكر الإنسان! ربما هي كانت أساس نظام المجتمعات لكنها تغيرت في مرحلة سابقة وتحولت الى الرأسمالية وملكيتها الخاصة وتمكنت من الاستمرار الى الآن. كيف شغلت بالي بكل هذه الأفكار! أريد الوصول الى مجتمع أتمكن من العيش فيه بأمان ولا يهمني فكرها، سياستها، دينها، ولا نظام حكمها.

عدت إليه بعد أيام لشراء أواني الطبخ وغيرها من المستلزمات الضرورية فرفض بيعها، تركني في السوبر ماركت وذهب الى شقته وعاد بعد مدة وجلب كل احتياجاتي منها دون مقابل وقال: عليك الهرب بأقرب فرصة لأنك لا تعلم قرارات هذه الدولة ربما تجبركم على الإقامة الدائمة ولا تسمح لك بالخروج وقد ينقلوكم الى هايم آخر بأية لحظة وربما يكون أسوأ من هذا بكثير. اشتريت منه سيم كارت شكرته وغادرت.

خرجت مع العائلة للتنزه في حديقة الهايم مساءً وتعرفت على عائلة سورية قبضوا عليهم بعد يومين من هروبهم وهم يبحثون عن مُهرّب مناسب يصل بهم الى أوربا. اتصلت بعدها بصاحبي لمعرفة ما حل به والى أين وصل فقال: وصلت النمسا منذ ثلاثة أيام.

- كيف كانت رحلتك.
- صديقي الحاج فارس بعث الي بمُهربين يقودان سيارة مرسيدس احضروا معهم هويات إقامة مزورة لكل أفراد العائلة وأوصلوني الى بلجيكا بشكل مباشر.
- كيف حال البصري وسنان أني قلق عليهما بعد اتصالهما وطلب رقم هاتفك؟
- إنهما في برلين الآن. وصلتهما بعد اتصالهما بكَ ووجدتهما في حالة يرثى لها ملابسهما رثة وممزقة من الطريق ولم يأكلا الطعام لعدة أيام بعد نفاد أموالهما، قمت بمساعدتهما وأنقذتهما من الوضع الذي هم فيه.. ما هو وضعك ومتى تصل؟
- لا أعلم يا صديقي بدأت الأموال تتناقص والأمور تتعقد ولم أتقدم خطوة واحدة.
- سوف أرسل الشباب ليقوموا بإيصالك الى المكان الذي ترغب فيه.
- شكراً لك، أتمنى الوصول بأقرب وقت لكن كم يتطلب ذلك من مبلغ؟
- ألف يورو للشخص الواحد، لا تحمل هم تهيأ وكن مستعداً سوف اتصل بك وأخبرك بالموعد، لكن قبل كل شيء يتوجب عليك شراء ملابس جديدة ومناسبة لكل أفراد العائلة والاهتمام بمظهرهم وكأنهم سُياح لكي لا تثيروا الشبهة والشك عند مروركم بنقاط التفتيش بين الدول.
- حسناً.

أصبح أبو غسان سندي الوحيد وليس لي ملجأ سواه لإنقاذي من هذا المأزق الذي وقعت فيه، أخبرت العائلة بكل ما جرى بيننا من حديث وما اتفقنا عليه وفرحوا بذلك. جمعت ما تبقى معي من نقود وكانت أربعة الاف يورو فقط.

عاود الاتصال بعد مدة: اتفقت معهم يوم الثلاثاء القادم يجب أن تكون في مركز العاصمة بودابست تخرج منها مساءً وتصل برلين في الصباح، أرسل صور أفراد العائلة من أجل الهويات.

- لقد بقي معي ثلاثة الاف يورو، لأني بالتأكيد سوف أكون بحاجة للاحتفاظ بمبلغ قليل لمتطلبات الرحلة وما بعدها.

- سوف أقوم بكفالتك لحين وصولك وسداد الباقي.

- حسناً سوف أكون هناك بحسب الموعد.

اتصلت بأبنتي وعرفت بأنها مع محسن وفادي بانتظار وصول المُهرّب الذي يأخذهم الى النمسا، تبيت كل ليلة مع بناتها في حديقة عامة في خيمة سفري وتذهب صباحاً الى الفندق للاغتسال والراحة قليلاً وتعود للساحة عند المساء، أوصيت البصري عليها وأخبرني بأنها مثل أخته يموت قبلها حتى تصل بسلام.

في اليوم التالي سألت العراقي صاحب السوبر ماركت: كيف يمكنني الوصول الى بودابست؟

- بالصعود في باص متجه الى محطة القطار ومنها تقوم بالحجز الى العاصمة.
- لكني أخاف أن تمنعني الشرطة من السفر!
- كلا أنت لاجئ ويحق لك الذهاب إلى أي مكان تشاء داخل الدولة، لكن تجنب محاولة الهرب قبل أن تتأكد تماماً من الطريق، لأنهم إذا قبضوا عليك سوف يحتجزونك في مكان آخر أو يقومون بحبسكم جميعاً في سجن لفترة طويلة.

عرفت منه بعد خروج اللاجئين من الهايم يهربون فوراً الى بلدان أوربا، لأنها دولة فقيرة ولا توفر سكن للاجئين غير مراكز الاحتجاز، بدون تامين فرص عمل ولا تامين صحي أو ضمان اجتماعي، يعني البقاء في العراق بالرغم من ناره المشتعلة أفضل بكثير من الاستقرار في هذا المكان.

بدأ وضعي الصحي يقلقني. ما هذا الألم في صدري الملازم لي باستمرار؟ لماذا هذا الضيق في التنفس وعدم القدرة على الركض مثل ما كنت في السابق؟ حتى لا أتمكن من مواصلة المشي لمسافات طويلة. لماذا هذا الشعور الدائم بالإعياء؟

بودابست – النمسا – التشيك – برلين.

خرجت مع الأسرة يوم الثلاثاء في الساعة السادسة صباحاً، ركبت الباص المخصص وحجزت الى بودابست، وفي أثناء تناولنا طعام الفطور في المحطة أرسل عباس رقم هاتف المُهرّب وعرفت منه بأن الأمور تسير حسب الخطة وكل الهويات جاهزة للجميع وسوف يكون بانتظاري في محطة العاصمة. وصلتها في الساعة الواحدة ظهراً ووجدته بانتظاري مع مساعده، قام بحجز غرفة كبيرة في فندق ثم أعطى لكل فرد من الأسرة هويته المخصصة. توضحت البطاقة كانت غير مثيرة للشك والشبهة وكأنها أصلية. عندما نظرت لصورتي والختم عاد لذاكرتي عندما كنت هارباً أيام الحرب كانت هويتي العسكرية ونماذج لإجازات مزيفة أتنقل بها لمدة سنتين ونصف بالرغم من التفتيش الشديد والمكثف دون أن يشك أحد بأنها مزيفة حتى صدور عفواً عن الهاربين من الخدمة، هربت من الجيش لا لخوفي من المعارك بل لأني لم أرد التخلي عن حياتي ببساطة وأستشهد مثل أخي الذي جاءنا مغطى بالعلم الذي لف عشرات الاف من خيرة شباب البلد بلا ذنب.

أخذت قيلولة قصيرة وارتحت قليلاً ثم خرجت وقت الغروب فكل بلد أصله أريد معرفة الكثير عنه فقد لا أعود إليه مرة أخرى. ذهبت الى سوق المدينة القديمة وتجولت فيه وشاهدت أن تأثير الدولة العثمانية ما زال واضحاً على أجوائه فلا يختلف كثيراً عن أسواق تركيا القديمة لكثرة انتشار مآذن الجوامع وطرق عرض السلع من محال صغيرة مطلة على دروب ضيقة، كثرة النوافير والتماثيل والنصب في ساحة المدينة العامة تمثل التنوع الحضاري للبلد، حتى وصلت نهر الدانوب الذي يشطر مدينة بودا عن بيست والجسر المعلق الذي يربط بينهما. رأيت على حافة النهر الأسمنتية مجسمات معدنية كأنها أحذية مختلفة الأشكال لأطفال ورجال ونساء متناثرة عليه. سألت أحد السواح عنها وقال: بعد احتلال القوات النازية للمدينة كانوا يربطون اليهود بسلسلة حديدية ينزعونهم أحذيتهم في هذا المكان ثم يطلقوا رصاصة على رأس أولهم فيسقط الجميع بعده في البحر بالتتابع. عادت لذاكرتي تلك المشاهد عندما جمع الدواعش مئات الشباب المعصوبي الأعين وموثوقي الأيدي وقاموا بإعدامهم وإلقاء جثثهم في النهر الذي تحول مائه للأحمر من كثرة الدم. بالرغم من أن دينهم يخبرهم أن إكرام الميت دفنه! لكن يبقى الإجرام نفسه باختلاف زمانه ومكانه. في طريق العودة فكرت بمفهوم التكفير الذي يولد الحقد والكراهية والتطرف فلكل إنسان ديانة ومعتقد أو فكر يتبناه وهذا حق مشروع للجميع، لكن يتحول عند البعض إلى الاعتقاد بأن أفكاره وحدها مطلقة دائماً على العكس مما يحمله بقية أفراد المجتمع فيحاول فرضه على الجميع بالقوة فيولد التطرف وينمو بشكل تدريجي بوجود عوامل سياسية

مساعدة ومحفزة حتى يصل لذروته المتمثلة بإنهاء حياة الآخر! هذا السبب الرئيسي الذي أنتج كل الحروب والصراعات والمجاعات والإبادة الجماعية التي شهدها العالم منذ نشأته إلى اليوم.

صعد المُهرّب إلى الشقة في الساعة العاشرة مساءً - أن موعد السفر قد حان أرجوا منكم عدم الخوف والارتباك فلديكم بطاقاتكم كأنها أصولية، أشعروا بأنكم في سفرة للسياحة والاستجمام وسوف نصل العاصمة في الصباح الباكر بسلام. اتصلت بلورنس الحديدي: أنا متجه الى برلين مع العائلة.

- خبرٌ جيد. سوف أبقى على اتصال دائم معك لكي أرشدك كيفية الوصول الى دائرة الهجرة، لكن إياك أن تطلب اللجوء في مركز شرطة.
- ولماذا!
- لأنك إذا قمت بتسليم نفسك هناك سوف تتأخر لأيام في الحجز قبل وصولك إليها.

من هنغاريا دخلنا الى النمسا عبر الطريق السريع خارج المدينة، كلما احتاجت السيارة للوقود دخل السائق محطة تعبئة تحتوي على مطعم نتناول طعامنا فيه وسوبر ماركت نشتري ما نحتاجه ونواصل الرحلة، حدد لورنس موقع دائرة الهجرة على نظام GBS وقام بأرساله لكي أصله مباشرة دون عناء البحث والسؤال - سوف انتظرك قربها في الساعة السابعة صباحاً.

وصلنا التشيك عبر طريق خارجي أيضاً وكانت نقاط التفتيش كثيرة يدققون الأوراق ويقارنوها بالوجوه فأوصى السائق الجميع التظاهر بالنوم العميق وعدم الحركة، وصلت المركبة بالقرب من الشرطي وتحدث معه بلغة غريبة لا افهمها ضحكوا قليلاً قبل أن ينطلق قال بعدها - لا تخافوا من شيء بعد الآن فقد تجاوزنا للتو أشد نقطة تفتيش بسلام.

كان الشابان طيبان والأجواء جميلة قضيت معهما أجمل يوم في رحلة الهجرة المضنية وشعرت معهما بمتعة غريبة لا توصف. كانا يتناوبان على القيادة طوال الليل وفي الساعة الخامسة صباحاً قال السائق: لقد أصبحنا قريبين من الحدود الألمانية.

شعرت بنعاس شديد ونمت واستيقظت في الساعة السادسة صباحاً على أتصال لورنس: خالي أنا متوجه الى دائرة الهجرة سوف أنتظرك لحين وصولك بسلام. قام السائق بفتح نظام تحديد المواقع في المركبة وقال: أنكم الآن داخل الأراضي الألمانية! اقشعر بدني وتذكرت كلّ ما واجهته من خوف، قلق، ألم، تعب، وموت محقق. طوال شهر كامل من انطلاقي من أزمير في يوم الثاني والعشرين من شهر آذار حتى وصولي برلين في اليوم نفسه من شهر نيسان. فأنهرت ببكاء شديد وأخذ الجميع ينوح بوجع. رغم مشاعر الفرح التي لا توصف لكن بقيت في قلبي غصة بسبب الطفلة التي فقدت حياتها في البحر بلا ذنب، وابنتي التي افتقدتها بعد أن تركتها لوحدها هناك في الغُربة.

وصلنا العاصمة يوم الأربعاء في الساعة التاسعة والربع صباحاً، كل شيء كان مختلف حيث الحضارة والمدنية والجو الرائع والناس المختلفة. توقفنا بحسب نظام المواقع العالمي مقابل دائرة الهجرة - السوسيال آمت - في مدينة "تورم شتراسة turm strasse " في العاصمة. رأيت شخصاً واقفاً في الباب يلوح بيده من بعيد، كان لورنس الذي لم ألتقِ به وجهاً لوجه من قبل فلوحت له بيدي وأخذني بالأحضان. كان يحمل وجهاً طفولياً حتى في طريقة كلامه يبدو مثل الأطفال بدين الجسم طيب القلب تحبه ويدخل قلبك بعد الحديث معه، وهو يناديني خالي من أول اتصال به قبل معرفته.

أعطيت ثلاثة الاف يورو للشباب وعرفت بأنهم قد استلموا بقية المبلغ من أبي غسان قبل انطلاقهم. أشار لورنس ألي بالدخول لدائرة الهجرة لعدم قدرته على مرافقتنا لأنهم سوف يعدّوه مُهرباً ويحتجزوه على الفور، دخلت وبقيت فيها لاستكمال الأوراق اللازمة وأدخلوني بعد مدة من الوقت مع العائلة لقاعة واسعة مع بعض الاستفسارات عبارة عن سؤال وجواب. عن بلدنا الذي قدمنا منه وطريق المجيء وسبب اختيار ألمانيا من بين بقية الدول للجوء فيها وما غير ذلك من أسئلة روتينية. ثم منحوا كل شخص بطاقات متعددة للضمان الصحي والاجتماعي وحساب في المصرف وبطاقة خصم لاستخدامها في كافة وسائط النقل الداخلية. طلبت منه أن يرشدني الى أقرب مطعم لأننا نتضور جوعاً فدخلت لمطعم تركي بجانب الدائرة تناولت الدجاج المشوي فيه.

عدت للدائرة ووجدت البصراوي وسنان أخذتهم بالأحضان مع بكاء الفرح الشديد. حدثني البصري عن كل ما واجهوه وقال: لقد نفذت كل أموالنا واضطررنا لبيع حتى هواتفهم النقالة لإكمال الرحلة، تابعنا المشي لعدة أيام حتى وصلنا دائرة الهجرة بعد إيصال أبنتك الى النمسا من ميونخ التي تبعد عن برلين ست ساعات بالسيارة، واستقلينا قطار بلا بطاقة وهربنا من الشرطة في المحطة حتى وصلنا لدائرة الهجرة مشياً على الأقدام وبدون طعام وقدمنا اللجوء فيها قبل ثلاثة أيام وجئنا اليوم لاستلام رواتبنا المخصصة.

استلمت الأوراق من الدائرة وأبلغوني بالحضور بعد ثلاثة أيام لاستلام بطاقة الرواتب المخصصة لجميع أفراد العائلة، سألت سمية التي تقف بجانبي: كم تبقى لدينا من نقود؟

- ثلاثمئة يورو.
- هذا من مجموع خمسة وثلاثون ألف يورو جلبتها معي من البلد قبل الانطلاق في الرحلة!

رن هاتفي النقال، كأنه صوت جرس كنيسة عملاق رنّ بقوة فقطع شريط ذاكرتي وأعادني للواقع. قرأت اسم زوجتي سمية على الشاشة قالت: كيف خرجت للمستشفى بمفردك ألم يمنعك الطبيب من ذلك! لماذا لم توقظني كي أرافقك؟

- نعم يا حبيبتي. لكني كنت بحاجة للمشي واستنشاق الهواء.

- هل ذهبت مشياً على الأقدام؟
- أجل لقد قطعت نصف الطريق فلا داعي للقلق.
- هل ارتديت كمامتك لأن الوباء يتفشى بشكل سريع.
- نعم. بالرغم من كرهي الشديد لها.

لم يبقَ للبشرية سوى هذا الوباء اللعين ليكتم أنفاسها. تلك الكمامة التي تغطي ملامح الوجه وتمنعنا من التواصل بشكل مباشر كان بإمكاننا التواصل بإيماءات الوجه دون كلام واليوم أصبح من الصعب معرفة نوايا ومشاعر الشخص الذي نحدثه!

ها قد عبرت الحديقة بأشجارها العالية وذكرياتها الحزينة والجميلة في الوقت نفسه. مررت بالقرب من مكتب للسفر رأيت على واجهته دعاية على شكل طائرة تحمل شعار الخطوط الجوية التركية؛ فحملتني على جناحيها إلى هناك حيث مطار أتاتورك ولقائي بشاهين بعد قراري الهرب من العراق وجحيمه.

قبل شهر

إسطنبول

توجهت مع العائلة الى بغداد بعد الظهر عند أهل زوجة أبني الأصغر حمودي، قصدنا المطار وفي الساعة الخامسة عصراً بعد الوداع الأخير المليء بالقبلات والأماني وصلنا تركيا. وجدت شاهين بانتظاري داخل صالة مطار أتاتورك، رحب بنا كثيراً وساعدني بحمل الحقائب ثم استأجر باص صغير يكفي الجميع، لأن عددنا أحد عشر شخصاً مع الأطفال. شاهدته ينقل الأغراض معي فشعرت بالأمان وحسبته أحد أبنائي وشكرت الله كثيراً فلولاه لم أكن أعلم ما كنت سأفعل في هذه البلاد الغريبة. وصلنا الى شقة مؤثثة وسط مدينة "أقصراي" في إسطنبول، أخذت قسطاً من الراحة من عناء السفر بعد استنشاق هواء تركيا العليل والاستمتاع بمناظرها الخلابة، شعرت بالاستقرار بعد الاطمئنان على الأهل وأحسست براحة نفسية غريبة كنت افتقدها في العراق، لكن يجب التهيؤ لما هو قادم فما الوصول الى تركيا إلا بداية طريق شاق طويل.

بعد مرور خمسة أيام من الاستجمام والتعرف على أجواء البلد التقيت بشاهين وقلت له: قبل كل شيء أني رجل جاد ودقيق في عملي ويكون اهتمامي أكبر عندما يتعلق الأمر بأسرتي ومستقبلهم، وأثق بجميع الناس لثقتي العالية بنفسي لذلك انتظر من الذي أتعامل معه أن يكون صادقاً وأمينا معي.

- ستجد الخير كله. أنا مثل ولدك يا عم ولن يهدئ لي بال إلا بعد وصولك لأوربا بسلام. كن مطمئناً.

شاهين عراقي كردي صديق ولدي علي تعرف عليه بعد انتقالنا لأربيل في العام ٢٠٠٧ هرباً من الحرب الطائفية التي اشتعلت بعد جريمة تفجير مرقد الأماميين العسكريين في سامراء. اتفقت معه مسبقاً أن يقوم بعمل الفيزا شنكل لأفراد العائلة الى إسبانيا وتكون البصمة فيها لأنها تابعة لدول الإتحاد الأوربي ثم التوجه الى النمسا لأن اللجوء فيها أفضل بحسب ما كان شائع.

- إن تكلفة الفيزا الواحدة ستة الاف دولار للشخص الواحد ما عدا الأطفال، ويكون المبلغ الكلي اثنان وأربعون ألف دولار.

- أموالي موجودة في العراق وبمجرد الاتفاق يمكن تحويلها في ظرف دقائق، لقد بعت جميع ما املك من شقة وأرض سكنية وسيارة وحتى أثاث المنزل وحصتي من ميراث والدتي بالإضافة لتوفيري المال من عملي المتواصل مع زوجتي منذ سنوات.
- يعني حرقت كل السفن خلفك!
- نعم بالضبط ولن ارجع الى العراق إلا وأنا في نعش.

اتفقنا على كل شيء. ثم أكملت الإجراءات من أوراق واستنساخ الهويات والجوازات وسلمتها إليه للمضي بالمعاملة، طلب مبلغ بسيط على شكل مقدمة فأعطيته ألف دولار بدل إيجار الشقة وبقية التكاليف التي أنفقها بعد وصولي للبلد. بالرغم من اتفاقي المسبق بأن يكون إيجار الشقة لمدة أسبوعين في تركيا ضمن المبلغ المتفق عليه سلفاً. جاءني بعد أربعة أيام تناولنا الغداء معاً وتعرف على عائلتي وكان مرحباً به من قِبل الجميع وأزداد ذلك الشعور بأنه أحد أبنائي بعد لقائي به وحديثي معه، عرفت بأنه يمضي بإجراءات المعاملة وحصلت الموافقة على منح الفيزا وسوف يصادق عليها قريباً.

كان لي علاقة طيبة بالكثير من الأصدقاء من خلال برامج التواصل الاجتماعي في تركيا ممن يرغبون السفر الى أوربا فاتفقنا على التواجد في أحد المقاهي. وصل الجميع في الزمان والمكان المعينين، أخذتهم لشقتي وعرفتهم على عائلتي، تحدثنا عن الهجرة وأخبرتهم بأمر سفري عن طريق الصديق شاهين، طلبوا مرافقتي وقاموا بإجراءات المعاملة مثلما فعلت. وصل شاهين بعد حضور الأصدقاء للتعرف عليهم وجهاً لوجه، أخذ منهم الأوراق المطلوبة وأخبرهم بمبلغ تكلفة الشخص الواحد وبأنه سوف يباشر بالمعاملة يوم غد وينتهي منها قريباً ليكونوا في أوربا مع عوائلهم بأقرب وقت، منحني الأصدقاء النقود المطلوبة فاحتفظت بها كونها أمانة لا يمكنني التصرف بها إلا بعد أنهاء معاملتي واستلام الجوازات مختومة.

حضر مع شاهين رجل كردي يحمل الجنسية البلجيكية عرفت بأنه صديقه الذي يقوم بكل إجراءات منح الفيزا لدول أوربا، رحبت به وطبخت زوجتي سمية لهما وليمة شهية وهي أكلة الباجة العراقية بعد أن أخبرني بأنه يحبها. شعرت بالأمان بشكل أكبر بعد تعرفي على عماد صديق شاهين وجهاً لوجه لأنه إنسان طيب ومؤدب وخجول أثناء الحديث معه.

في مساء اليوم التالي وصلني شاهين وقال: إن المعاملة وصلت لنهايتها وقد طلبوا الجوازات للتأكد من أنها أصلية ونافذة للتحقق من جهة إصدارها قبل تأشيرها ومنح الفيزا وسوف أرجعها بعد ساعات. ثم أعلمني بعد مدة بأنهم قد طلبوا عن كل جواز سفر ألف دولار وهو لا يملك هذا المبلغ في الوقت الحالي.

- ليس بحوزتي هذا المال لأن أموالي في العراق وسوف أمنحها إليك حال تسليمي الجوازات مع تأشيرة الدخول الى إسبانيا. بعد المماطلة والحديث الطويل والمتعب تم الاتفاق في النهاية

على مبلغ أربعة الاف دولار عن جميع الجوازات. بعد اتصالي بالأصدقاء وافقوا التصرف بأموالهم بشرط تحملي المسؤولية بشكل كامل لأنهم يعرفونني فقط ولا يثقون بأحد غيري في تركيا، طمأنتهم على الأمر - لا داعي للخوف أنه صديق صدوق ويمكن الاعتماد عليه والوثوق به وكل الأمور سارت على أفضل ما يرام.

في الساعة الحادية عشر والنصف مساءً اتصل شاهين: لقد تم تأشير الجوازات في السفارة الإسبانية لكنهم يرفضون تسليمها قبل دفع المبلغ كاملاً.

- سوف أدفع بعد رؤية الجوازات مع سمة الدخول وأفحصها للتأكد من أن الفيزا أصلية؛ فإذا كانت مزيفة يقومون بحبسنا لسنوات وبعد خروجنا يمنعونا من دخول تركيا.
- وهم يرفضون تسليمها إلا بعد دفع المبلغ كاملاً!
- لكن بيننا اتفاق مسبق أسلمك النقود بعد تسليمي الجوازات مؤشرة!
- هذا الذي حصل. إما تدفع الآن أو تعتبر العملية ملغية من الأساس.
- حسناً. ارجع ألي أموالي التي أخذتها وأعتبر بأن شيئاً لم يكن.

- لقد تم صرف ما أخذته منك كأجور للمعاملة وأريد بقية المبلغ لإكمالها وينتهي الأمر.
- هذا من حقك لو منحتني شيء يؤكد بأنك قد قمت بتأشيرها بالفعل.
- إذاً اعتبر كل شيء قد انتهى من اللحظة
- وجوازات السفر!
- لا أستطيع إرجاعها إليك؛ قبل دفع المبلغ المتفق عليه لأنها محجوزة في السفارة.

بعد أن رأيت إصراره وعناده للحصول على الأموال بالرغم من اتفاقي المسبق معه بأن لا اعطيه دولار واحد قبل استلام الجوازات مع تأشيرة الدخول الأصلية، عرفت بأنه قد أخل بالاتفاق المبرم بيننا وشعرت بأنه يحاول ابتزازي وقد أصبحت ضحية لعملية احتيال. في هذا الموقف بالذات أُصبت بصدمة شديدة واختلفت كل الأشياء في نظري، تغيرت كل المقاييس والقيم التي كنت أحسبها مقدسة، هذه المعاملة الأولى التي أقوم بها مع شاب بعمر ولدي في الغُربة وقد تمكن من استغلالي بسهولة فيجب إعادة النظر في كل شيء.

تعلمت الدرس الأول المهم بثمن غالٍ في الغُربة وهو يجب التخلص من بعض القيّم التي جلبتها معي من الوطن وأولها الثقة العمياء والطيبة الزائدة، لأن تلك الأمور تتحول الى نوع من الغباء في مثل هذه الأماكن فقد ضحيت بأموال كبيرة دون تحقيق شيء يذكر، والدولار الذي أنفقه هنا لا يمكن تعويضه مطلقاً ولأنني أتحمل مسؤولية عائلة مصيرهم معلق برقبتي. فيتوجب إرجاع جوازات السفر بأي طريقة وخصوصاً بعد سماعي بأن المهاجرين من بلدان المغرب العربي وأفريقيا يقومون بشراء الجوازات العراقية والسورية بأسعار باهضه؛ لسهولة تزويرها ولأنها مقبولة في البلدان الأوربية بسبب ظروف الحروب التي تجبر أبناء تلك الدول على الهجرة.

عرفت بأن الحصول على الجوازات سوف يتطلب التضحية بمبالغ كبيرة، اتصلت بشاهين وحدثته بكلام لين وهادئ فليس لي غير هذا السبيل، وبعد معاناة وقلق طويل استمر لعدة أيام تم الاتفاق أخيرا على إرجاعها مقابل خمسة الاف دولار واستلمتها مثلما كانت بلا تأشيرة.. فوضت أمري الى الله وشعرت بفرح غامر بالرغم من الخسارة فقد تعلمت درساً قاسياً لن انساه ما حييت.

في اليوم التالي سمعت طرقات على الباب فتحته وكانت صاحبة الشقة: ها قد مر أسبوعان ولم تدفع الإيجار.

- أخبرني شاهين بأنه قد دفعه لأسبوعين مقدماً!
- لم استلم سنتاً واحداً من أحد.

اتصلت به وقال: لم أدفع الإيجار لأني لا أملك المال!

في هذه المرحلة وصلت لمفترق طرق فقد أنفقت ثمانية الاف دولار في أسبوعين ولم امشِ خطوة واحدة باتجاه الهدف الذي رسمته وقررت تحقيقه. وإيجار الشقة باهض لأنها في إسطنبول وسط مدينة سياحية فيجب التصرف حالاً قبل خسارة كل شيء. جلست أفكر بطريقة أتمكن من خلالها الوصول الى أوربا بعد حرق كل السفن التي وصلت بها من العراق ذلك البلد الذي يأكل أبناءه، فقد أصبحت غريباً عنه ولا يمكنني العودة بعد بيعي كل ما املك فيه. يتوجب الآن تقليل المصاريف لأدنى درجه ممكنه، لذا قررت السفر والانتقال لمدينة أخرى يكون العيش فيها أرخص من إسطنبول، هي مدينة ساحرة الجمال لكنها بائسة من الداخل فقد كرهتها بعد كل عمليات النصب والاحتيال والسرقات العلنية في الشوارع وبشكل مرعب، حتى أحسست بأن حياتي مهددة بالخطر فمن الممكن أن أُسرق وأُقتل في الشارع بطرفة عين دون أن يسال عني أحد لأني لاجئ من بلد حكومته لا تحترم أبناءها ولا تعيرهم أي اهتمام.

سألت الأصدقاء في التجمع عن محافظة مناسبة تكون أرخص من إسطنبول للسكن فيها مؤقتاً وكان قول الجميع مدينة أسكي شهر. ذهبت الى مبنى مكتب الأمم المتحدة في تركيا قبل انتهاء فترة الإقامة فيتوجب تقديم أوراق لجوء عن طريقها، لأنهم سوف يمنحوني أوراق رسمية لا يستطيع أحد محاسبتي لبقائي بعد انتهاء مدة الإقامة، وعرفت من الموظف بأنهم قد منحوني وقت قريب للمقابلة لأني رب أسرة كبيرة وكان بعد ست سنوات من تقديم الطلب! أي في الشهر تموز من العام ٢٠٢٠.

عرفت من الأصدقاء سعد وزيد الذين أرجعت لهم النقود بأنهم قد عزموا على السفر الى أوربا عن طريق التهريب. فقد أدركوا بأنها عملية نصب واحتيال وتأكدوا بأنه لا يوجد شخص في تركيا باستطاعته عمل تأشيرة دخول الى أوربا بشكل رسمي، وقد نجحوا في الوصول الى بلغاريا ذهب أحدهما الى برلين والأخر الى بلجيكا.

أسكي شهر

نزلت من القطار في الساعة الثانية عشر مساءً بعد مرور ست ساعات على سكة السفر حتى وصلت المحافظة التي تبعد خمسمائة كيلو متراً عن إسطنبول. خرجت عن المحطة الى الشارع العام لا اعرف أحد ولا أعلم إلى أين أتجه وليس بإمكاني التحدث باللغة التركية فشعرت بمعنى الغُربة الحقيقي، جمعت الحقائب وجلست مع عائلتي في باب المحطة مثل أبله تائه، أنظر إلى وجوههم أحد عشر نفراً من أولاد ونساء وأطفال كيف أمكنني أخذهم للمجهول دون تخطيط مسبق. حدثت الناس في الشارع ولم أجد أحدا يتقن الإنكليزية حتى التقيت بشخص سائق باص صغير تمكنت من التواصل معه: أنا غريب وبحاجة لشقة في فندق بسيط وسط المدينة فاتفقت معه على الأجرة وركبنا معه ونقلني لفندق مكانه مناسب وثمن إيجاره رخيص فقررت السكن فيه. ارتحت قليلاً ونزلت مع ولدي علي لجلب الطعام للعائلة فلم يكن فيه مطبخ فأكلوا جميعاً حتى شبعوا فشعرت ببعض الاستقرار والراحة.

تعرفت على بعض العرب المتواجدين في تلك المنطقة ومنهم سميح ذلك الأنسان الرائع الأخلاق المثقف الذي يحب مساعدة الأخرين، قلت له: أنا مغترب من العراق وابحث عن شقة بسيطة للسكن فيها مؤقتاً بمبلغ زهيد حتى لو كانت بعيدة عن السوق، تحتوي على مطبخ لأني لا أستسيغ أكل المطاعم وشراء الطعام يتطلب مبالغ إضافية سوف أكون بأمس الحاجة اليها مستقبلاً. بحثنا عن شقة معاً واستأجرت بمساعدته واحدة مؤثثة بمئة ليرة في اليوم وكانت أرخص من السكن في الفندق. بعد فترة بحثت عن أخرى خالية أرخص، أقوم بتأثيثها بأثاث مستعمل بسيط ورخيص يفي بالغرض، وبعد مرور ثلاثة أيام من البحث وجدت شقة صغيرة خالية سألت عن صاحبها وكان عراقياً مقيماً في تركيا اسمه حمودي ويلقب دودي استأجرتها منه بعد دفع تأمينات خمسمئة ليرة تركية أي ما يعادل مئتا دولار. قمت بشراء كل الحاجات الضرورية ولم يكلفني ذلك أكثر من ألف دولار بعد أن أرشدني سميح لمتجر يديره عراقي يبيع أجهزة مستعملة رخيصة. شعرت بالاستقرار وتمتعت بتلك الأجواء الخلابة في كل مكان يقع نظري عليه فكل شيء ممتع وجذاب، مدينه فائقة الجمال هواءها نقي وجوها رائع وسوقها رخيص، بدأت بنسيان وجع العراق وظلمه ومشاكل إسطنبول والمبلغ الذي خسرته فيها بعد عملية النصب التي تعرضت لها.

جلست مع عائلتي وحدثتهم بأن علينا اعتبار أنفسنا سوّاح جئنا الى تركيا للسياحة والاستجمام ونبحث عن طريق للهجرة، إذا حصلنا عليه فذلك أمر جيد وإن لم نتمكن فبإمكاننا الاستقرار فيها بعد الحصول على عمل يسد الرمق حتى وإن كان بسيطاً.

مررت بجانب ثانوية فصادفني الطلاب بأناقتهم المعهودة، كان بعضهم يحملون الآت موسيقية تذكرت شغفي بالموسيقى وحلمي بارتياد أكاديمية الفنون الجميلة لكني اضطررت لترك الدراسة في الصف السادس الأدبي بعد استشهاد أخي وعودتي لمقاعد الدراسة في العام ١٩٨٤ ونجاحي وبمعدل عالٍ لكن لم يتم قبولي حينها بالجامعات العراقية، لأن الحرب كانت مشتعلة وسميت تلك السنة بعام الغدر لعدم قبولها المعدلات العالية وأرسال الخريجين الى مطحنة الحرب، صدر قرار بعد مرور عام يكون فيه من حق الخريجين التقديم مرة أخرى الى الجامعات والمعاهد، لكني كنت خائفاً من انتشار إشاعات بأن الجامعة لن تقبل المتقدمين إليها وسوف يتم سوقهم للجبهة مرة أخرى، فقدمت على معهد إدارة في البصرة وتم قبولي وكان قراري إكمال دراستي في المعهد بعد قضاء الخدمة الإلزامية.

تعرفت على الناس وكونت علاقات صداقة مع عرب وأتراك في مدينة أسكي شهر منهم الصديقة أيليف مديرة مكتب سياحة وسفر، ساعدتني في الكثير من الأمور التي كنت احتاجها وتعرفت على شخص عراقي يلقب بأبي فهد التميمي.

ضحية

تعرفت على أبي فهد في إسطنبول عبر الفيس بوك وكان يبحث عن سبيل للخروج من تركيا والوصول الى صربيا بطريقة سليمة دون مخاطر. أخبرني بأن الذي يتمكن من الوصول الى هناك ويبصم فيها بعد إلقاء القبض عليه يستطيع طلب اللجوء في جميع دول الإتحاد الأوربي، وجدته شريكاً لي في الأفكار والأهداف التي كنت أسعى لتحقيقها، حجزت عبر الصديقة أيليف رحلة في قطار متجه الى إسطنبول فالتقيت به وحدثني بأنه قد تعرف على شخص عراقي في صربيا عن طريق الفيس بوك يدعى أبو ضاري قد أوصل مجموعة من الأصدقاء الى أوربا، لأنه ضمن هيئه إدارية لنادي نوفي بازار الرياضي الصربي لكرة القدم ويستطيع توجيه دعوة لأشخاص بداعي اللعب في النادي، ويطلب نصف المبلغ مقدماً والآخر يستلمه بعد وصول المسافر الى المطار. وقد اتصل به بالفعل وطلب منه ألفي دولار للنفر الواحد، لكنه كان متردد من بعث المبلغ لأنه لا يعرفه شخصياً ولا يستطيع الوصول إليه أن استولى على المال ووقع ضحية عمليه نصب واحتيال.

اقتنعت بما سمعت واتفقت معه أن ابعث جوازات عائلتي ونسافر معاً فوافق على ذلك بشرط أن يعطيني رقم هاتفه واتصل به بشكل مباشر فلا يتحمل مسؤولية وقوع خطأ ما، حصلت على رقم الهاتف وعنوان صفحته في الفيس بوك ثم قررت التريث وعدم الاستعجال وأتصل به لاحقاً بعد وصول أبي فهد بالفعل، لأني مستقر في شقة مناسبة والسوق رخيص والأجواء جميلة وهادئة.

أسكي شهر مدينة رائعة فيها ثلاث شوارع رئيسية كبيرة وأجملها شارع العشاق تنتشر على طرقاته حدائق واسعة تكثر فيها الأشجار العالية وتنبت تحتها زهور ملونة، يتخذه السكان مكاناً للراحة والاستجمام وممارسة الرياضة. والشارع الآخر يسمى جارشه يمثل سوق المدينة يضم محال تجارية تبيع الخضر والفواكه وبقية السلع. والأخير شارع السندباد يخترق منطقة سياحية مميزة وبنايات شاهقة ويصل لقصر ضخم وفخم يحمل الاسم نفسه. خلال التنزه في شارع العشاق وجدت شباب يلعبون كرة القدم وعرفت من صياحهم بأنهم عرب، تابعت لعبهم لحين انتهاء المباراة وتعرفت على حسن شاب عراقي رياضي وتحدثت معه - ولدي حمودي لاعب مميز يمتلك موهبة رائعة في لعبة كرة القدم وقد لعب فترة قصيرة في نادي الأمانة ثم انتقل الى نادي الزوراء في بغداد قبل مجيئنا الى تركيا.

- نرحب به بين صفوف الفريق لأننا عراقيون نلعب ضمن نادي للمغتربين في المدينة ونلعب بين فترة وأخرى مع أندية تركية مشهورة.

ذهبت مع حمودي صباح اليوم التالي وتعرفت على المدرب والهيئة الإدارية وتم فحص قدراته والتعرف على مهاراته في الساحة ونجح في الاختبار وأصبح لاعباً أساسياً في النادي. لعب مع الفريق وتمكن من تسجيل أربعة أهداف في مباراة واحدة وأصبح معروفاً بينهم يحظى بتشجيع متواصل لأنه شاب ذو لياقة ومهارات عالية، بات لاعباً مشهوراً بين صفوف النادي في ظرف أيام قلائل وعُرف على مستوى المحافظة، حتى تقدمت بعض الفرق التركية لتوقيع عقود رسمية معه لكنه رفضها جميعاً لأن العقد مع النادي التزام وهو لا يستطيع البقاء في تركيا لفترة طويلة لأنه لاجئ مؤقت ويسعى للهجرة بأقرب وقت، بالإضافة الى أن مبلغ العقد كان رمزياً قد يكفيه ابتياع ملابس رياضية ومصرف جيب فقط فلو كان كافياً لمعيشة العائلة لما فكرت بالهجرة الى الخارج. وهذا حال الشباب العراقي والعربي بشكل عام جميعهم عاطلون عن العمل في تركيا تجد اغلبهم يتجه للعب كرة القدم لتضييع الوقت، ولو توفرت لهم بعض الأعمال البسيطة تسد رمقهم لما فكروا بالهجرة وتحمل مخاطرها المميتة.

شعرت ببعض الاستقرار لأن الأمور أخذت تسير بشكل طبيعي، ولدي يلعب في النادي ويحصد شهرة كبيرة بين الجماهير والحياة آمنة ومستقرة فبحوزتي بعض الأموال تكفي للعيش بسلام دون الحاجة لأحد، بعد ذلك قرر كل من ولدي علي وابنتي سرى العودة الى العراق، ذلك لأنهم لم يجنوا ثمار غربتهم ولم يكن هناك أمل ملموس في الهجرة مجرد انتظار طويل ودرب مجهول غير معروف النهاية، عادوا للعراق وبقيت مع زوجتي وأطفالي وحمودي وعائلته.

عاد لذاكرتي موضوع أبي ضاري وفكرت بالاتصال به والحديث معه عن ولدي وقدراته في لعب الكرة وإمكانية دعوته للاحتراف في النادي الصربي، وإذا حصل على عقد مرضٍ هناك نتمكن من البقاء في تركيا والعيش بما يبعثه من مال أو يستطيع تقديم طلب لم شمل بعد وصوله فنلحق به ونسكن معه، راسلته عن طريق الفايبر وكتبت "أني لاجئ عراقي في تركيا وولدي لاعب كرة قدم يمتلك مهارات عالية في اللعبة ويرغب بالاحتراف في نادي نوفي بازار الرياضي"

اتصل في اليوم التالي: وما المطلوب مني؟

- أنوي الهجرة الى أوربا بواسطة ولدي اللاعب بعد توجيه الدعوة من قبلك، لأنك عضوٌ في الهيئة الإدارية لنادي معروف ويمكنك استدعاء أي لاعب ترغب في التعاقد معه.
- نعم هذا ممكن فقد قمت بدعوة الكثير من العراقيين بهذه الطريقة ويكون ذلك عن طريق محامٍ يقوم بالإجراءات القانونية اللازمة. لكن هذا يتطلب مبالغ مالية!
- وكم يتطلب؟
- ألفي دولار للشخص الواحد تتضمن تأشيرة الدخول وتذكرة الطائرة وحجز في فندق خمسة نجوم.
- وكيف يتم ذلك؟

- تصل نسخة دعوة خاصة إلى السفارة الصربية في تركيا عن طريق البريد الإلكتروني، والأخرى لك تراجع بواسطتها السفارة ويتم سفره بعد أيام قليلة.
- هل بالإمكان أرسال طلب لجميع أفراد العائلة؟
- كم عددكم.
- أحد عشر شخصاً مع الأطفال.
- البالغين فقط.
- سبعة.
- أذن يكون المبلغ أربعة عشر ألف دولار للجميع.
- حسناً. سوف نبقى على اتصال لحين تهيئة المبلغ.

بعد مرور عشرة أيام من الاتصالات والاتفاقات طلب مني مبلغ أربعة الاف دولار بحوالة نقدية كأجور محاماة قبل أن يباشر في العمل فطلبت أن تكون الدعوة موجهة لولدي فقط، وافق بشرط تحويل مبلغ الفي يورو مقدمة والباقي بعد وصوله ولكن قبل ذلك يجب إرسال مقاطع فيديو لولدي خلال التدريبات والمباريات لكي يقوم بعرضها أمام الهيئة الإدارية للنادي ويوافقوا عليه.

- دعني أكن صريح معك لن أستطع إرسال هذا المبلغ لأنك تسكن في دولة بعيدة ولن أتمكن من وصولك.
- حسناً أذن أبعث لي ألف يورو أجور المعاملة مقدماً.
- هل يمكنك إكمال الإجراءات وبعث الدعوة وبعد استلامها تستلم مع ابني المبلغ كاملاً وألف يورو هدية مقابل أتعابك.
- اتفقنا.

في اليوم التالي اتفقت مع النادي وقمت بتصوير ولدي في المباراة واستعراض قدراته الفنية في اللعب وبعثتها، اتصل بعد فترة - الفريق بحاجة ماسة لقدرات مثل هذا اللاعب في النادي وأن المحامي قد أنجز الدعوة بشكل رسمي لكنه يرفض إرسالها قبل استلام النقود كاملة.

- لكننا اتفقنا مسبقاً أن ابعث لك النقود مع ابني بعد وصوله!
- الهيئة الإدارية للنادي طلبت أجور المحاماة ولا امتلك المال في هذا الوقت. إما أن تبعث المبلغ بحوالة أو تعتبر الموضوع ملغياً من الأساس.
- سوف أرسل لك الفي دولار.
- نعم هذا يكفي كمقدمة.

أرسلت النقود يوم الخميس بحوالة وقام باستلامها وأخبرني بأنه في يوم الاثنين القادم يبدأ بإجراءات الدعوة بعد انتهاء العطلة. اتصلت بعدها بأبي فهد وأبلغته بالموضوع وقال: استعجلت كثيراً؛ الموضوع غير مؤكد فقد تكون عملية احتيال جديدة.

- لقد وثقت بهذا الرجل بعد سماع حديثه ولو طلب أكثر من هذا المبلغ لأرسلته دون تردد.
- لكني أرسلت مبلغ كبير من المال منذ مدة طويلة ولم احصل على شيء منه لحد الآن!

أصبت بصدمة شديدة بعد سماعي كلامه، وانتظرت يوم الاثنين بفارغ الصبر. مر أسبوع وآخر دون استلامي شيئاً منه. أخبرني بعد مدة بأنه قد ذهب للمحامي واتفق معه وأعطاه نصف المبلغ وإجراءات المعاملة تسير بشكل طبيعي وقد تستغرق أيام ولا تتجاوز الأسبوع قبل إتمامها ثم يرسلها لمراجعة السفارة الصربية قبل السفر. اتصل بعد مرور عشرة أيام وأرسل نسخة من الدعوة وأخبرني التوجه الى السفارة الصربية لإكمال معاملة السفر.

كان يوماً جميلاً للعائلة كلها بعد أن أقمنا حفلة في الشقة مع أغاني طربية عراقية وبقينا نرقص ونغني لحد الصباح، في اليوم التالي ذهب حمودي للسوق واشترى ملابس جديدة تليق بأوربا وتجهيزات رياضية كاملة، بقينا على هذا الحال من الفرح والحفلات الصاخبة لمدة أسبوع حتى بلغت ولدي وابنتي في العراق على ضرورة العودة فوراً الى تركيا لأننا سوف نسافر قريباً.

قمت بسحب الدعوة على ورق من أجل المراجعة وحجزت من محطة القطار الى أنقرة وكان وقت الرحلة مناسباً حيث ينطلق من أسكي شهر في الساعة السادسة صباحاً ويصل العاصمة في الساعة السابعة والعشرين دقيقة، وصلنا السفارة الصربية بعد عشرة دقائق في التاكسي من محطة أنقرة، دخلنا هناك وكان في الاستعلامات موظف يتكلم الإنكليزية سلمته الدعوة دعانا للجلوس وعاد بعد مدة - لم تصلهم مثل هذه الدعوة، سجل رقم هاتفك وسوف أتصل بك حال وصولها!

رجعت اجر أذيال الخيبة مع الكثير من الشكوك، اتصلت بابي ضاري فور خروجي من السفارة وقال - هذا أمر مستحيل لقد أرسلتها قبل أيام، يجب أن يكون هناك خطأ ما داخل السفارة لذا سوف أقوم بأرسالها مرة أخرى وأتأكد من استلامها بنفسي. بعد مرور عشرة أيام مزعجة من الانتظار المشوب بالقلق أخبرني أبو فهد بأنه قد استلم الدعوة نفسها لكل العائلة وأنه سوف يحجز طيران لأن إسطنبول بعيدة عن أنقرة والقطار يتأخر في الوصول. اتصل بعدها من السفارة وقال - أغسل يديك أبا علي هذه الورقة مزيفة لأن الموظف قد أبلغني بأن مثل هذه الدعوات تصل السفارة قبل أي أحد!

أخبرت أبا ضاري: ربما المحامي الذي كلفته بالقضية أستلم المبلغ ولم يقم بالإجراءات اللازمة!

– هذا محتمل انتظرني ليومين فقط لأتحقق من ذلك بنفسي.

مرت عدة أيام دون رد وأخذ يتجاهل اتصالاتي يرد بعد كل أربعة أيام ويقول بأنه مشغول في إجراءات عديدة ولا يستطيع التواصل معي في هذه الفترة، بعد مرور شهر من الاتصالات ومعاناة الانتظار شعرت بالإحباط وعرفت بأني ضحية لعملية نصب جديدة.

أتصل أبو فهد بعد فترة وهو يندب حظه: لقد أرسلت لأبي ضاري عشرين ألف دولار مقابل سفر عشرين شخصاً من أصدقائي وأقربائي لأنهم يريدون الهجرة عن طريقه ولم يرد على اتصالاتي. لا أعلم ماذا أفعل لم يتبقَ لي سبيل إما الانتحار أو الهرب.

****

لم أكن انوي التفريط بعائلتي والمجازفة بالموت وسط أمواج البحر العاتية فكنت أبحث عن طريقة آمنة أتمكن من خلالها الوصول الى أوربا، لكني لا أعلم كيف. تفحصت الأنترنت بحثاً عن النادي ووجدته من نوادي الدرجة الأولى في صربيا بالفعل، فتشت عن أسماء الهيئة الإدارية وعثرت على شخص صربي اسمه فلاديمير مقيم في أستراليا، طلبت صداقته في الفيس بوك فوافق واتصلت به على الفور: ولدي لاعب موهوب وقدراته عالية ويلعب الآن في نادي معروف في أسكي شهر ويود الاحتراف في أحد الفرق الصربية.

- لو ترغب أن يلعب ولدك في النادي يتوجب حضوري الى تركيا والتعرف عليه وجهاً لوجه ومتابعه مباراته لكي أعرف أن كان يصلح للعب في نادي أوربي أم لا، ثم أسافر الى صربيا من أجل إقناع الهيئة الإدارية للنادي بضرورة التعاقد معه لقدراته الفنية العالية وأحصل على موافقة سفره بعد إكمال إجراءات الدعوة، ومن بعدها أعود لتركيا مع الدعوة ثم ارجع لأستراليا بعد إتمام المهمة. وكل هذا يتطلب مبالغ كبيرة.
- لن أرسل الأموال الى أحد بعد الآن لأني وقعت ضحية عملية نصب واحتيال كبيرة.
- لا اطلب منك المال سوف احضر الى تركيا وتقوم بدفع مبلغ تذكرة السفر لأني قدمت من أجلك وتتحمل مصاريف فترة تواجدي فيها، ثم استلم منك مبلغ سفري لصربيا وعندي بعض الأقارب هناك سوف أسكن عندهم كي لا تتحمل مصاريف تواجدي فيها، علماً سوف أجلب معي الدعوة بيدي وأبقى في تركيا لحين وصول ولدك الى النادي قبل العودة الى أستراليا.

وافقت بعد التفكير لأنه لم يطلب أموال مثل السابق، فأصبح عندي دافع قوي للمواصلة مهما كلف الأمر من مبالغ سوف أقوم بدفعها لحين وصول ولدي ولعبه في النادي بطريقة رسمية بعيداً عن مخاطر طرق التهريب واللجوء غير الشرعي.

أخبرني بعد أسبوع بأنه قد جهز أموره وحجز فندق في إسطنبول وخيرني بين انتظاره في المطار أو المجيء للفندق. ذهبت مع حمودي قبل يوم من موعد وصوله وحجزت شقة في فندق قريب من مكانه والتقيته في اليوم التالي ووجدته رجلاً جاداً في عمله ومثابراً من كثرة

اتصالاته، جلسنا قليلاً وتحدثنا كثيراً عن طريقة احتراف ولدي في النادي وعرض كثرة المراسلات والصور ومقاطع الفيديو التي أرسلها للهيئة الإدارية للنادي من أجل قبول احترافه، ثم دعوته إلى العشاء لأداء أصول الضيافة.

عرفت تكلفة السفرة الكاملة من أستراليا ثم العودة اليها تتطلب مبلغ ثلاثة الاف دولار، ولن يستلم المبلغ كاملاً بل على شكل دفعات بعد كل رحلة يقوم بها بحسب الاتفاق المسبق. قام بحساب مبلغ قدومه الى تركيا وذهابه الى صربيا والرجوع الى تركيا وكانت ألف ومئتي دولار. فأعطيته المبلغ نقداً باليد. بقيت ثلاثة أيام في إسطنبول حتى موعد إقلاع الطائرة فقمت بتصوير جواز سفر ولدي وبقية أوراقه المطلوبة وأعطيتها له، وأبلغني قبل سفره بأن اليوم الأول سوف يقضيه مع الأقارب للراحة من عناء الرحلة ويتواصل معي في اليوم التالي.

عدت للأهل مع الدعوات والأمنيات بانتهاء الأمور على ما يرام ولا تكون حبلى بالخوف والقلق مثل سابقاتها. راسلني بعدها ورأيت عن طريق الكاميرة أهله وتعرفت عليهم، وصوّر نفسه بعدها وهو في طريقه الى النادي حتى وصوله إلى الباب الرئيس للملعب قبل أن يقطع الاتصال للقائه بالهيئة الإدارية في الداخل وأخبرني بأنه سوف يتواصل معي لحين إتمام المهمة.

استمر الحال لعشرة أيام من الاتصالات كانت خليط بين رغبات ودعوات وخوف وقلق وآمال حتى قال: لم يكتمل نصاب الهيئة الإدارية وتأجل الاجتماع أكثر من مرة بسبب عدم حضور المدرب ومشاكل داخلية ونزاعات مستمرة حتى اجتمعت الإدارة في نهاية المطاف واتفقت على تغيير المدرب الذي أعرفه وأنهت صلاحياته، وبالتأكيد إن المدرب الجديد سوف تكون لديه رؤية جديدة وتشكيلة مختلفة للنادي ولم تبقَ للقديم صلاحية استدعاء لاعبين للتشكيلة الأساسية، لذا سوف أبقي على تواصل معك لحين إتمام المهمة لكن الموضوع أصبح صعباً للغاية.

سألته يأساً بعد أسبوع: كيف الحال؟

- يجب الصبر لفترة قصيرة لحين استلام المدرب الجديد مهامه ومن ثم مفاتحته بالأمر لكن احتمال موافقته ضعيفة.. بالمناسبة يجب عودتي لأستراليا مباشرة من صربيا لأني مرتبط بعمل لا أستطيع التأخر عليه، لذا ابعث مبلغ تذكرة عودتي رجاءً.. وبعثت المال مضطراً.

يا لعمق هذا البئر الذي أوقعت نفسي فيه، هل أنا طيب أم غبي؟ أم مغفل؟ أم مجنون. أم ماذا بالضبط. أعتقد إن تصرفي هذا بسبب طيبتي المفرطة التي تربيت عليها في بلدي وقد أوصلتني لمرحلة البلاهة وجعلتني فريسة سهلة لطمع الغُرباء، مما سبب اندفاعي الأعمى دون حساب العواقب. ربما لأن الأمر يخص عائلتي وخوفي عليهم من الضياع. مهما يكن من أمر لقد وقعت في أخطاء لا تغتفر ولن أسامح نفسي عليها أبداً.

بقينا على اتصال مستمر لشهرين دون فائدة حتى أصابت أبني حمودي خيبة أمل شديدة وأبلغني بضرورة نسيان السفر والاحتراف في أوربا، لأنه امر متعب وليس هناك رجاء في تحقيقه. مررت بفترة إحباط وساد حزن كبير على أجواء العائلة.

أصبح توجهي مختلف بعد كل ما حصل ففكرت بضرورة الرجوع الى سعد وزيد ومن خلال مراسلتي لهم عرفت بأنهم قد وصلوا الى النمسا عن طريق مُهرب عراقي مستقر في رومانيا بعد أن بعث شخص الى تركيا أنطلق بهم الى بلغاريا مشياً على الأقدام لمدة أسبوع وعبر بهم مستنقعات وأحراش وأنهار وجبال، ولم يتصلوا بي خلال وجودهم فيها لأن الذي يلقى القبض عليه يتم سجنه مئة يوم وبعدها يبصم على اللجوء إجبارياً وكل لاجئ فيها لا تستقبله أي دوله في أوربا. بقيت على تواصل بهم وأبلغتهم كل ما حدث معي في الأيام السابقة حتى اقتنعت بأن ليس هناك وسيلة للهرب غير التهريب وكل من يخبرني بأنه يستطيع إيصالي إلى هناك هي عمليه نصب واحتيال، ما عدا طريقة واحدة فقط وهي الحصول على تأشيرة دخول رسمية من السفارة وقيمتها خمسة عشر ألف دولار للشخص الواحد وهذا المبلغ لا أستطيع دفعه مع عائلتي بالتأكيد. مع هذا الوضع بعد كل الخسارات التي تلقيتها تكونت لدي قناعة تامة بأني لن أتمكن من الوصول إلا عن طريق التهريب، فيجب المخاطرة وتحمل كل النتائج ولا مفر من الكوارث التي ربما تحصل نتيجة اتخاذ هذا القرار.

شهد العام ٢٠١٤ هروب أعداد كبيرة عن طريق البحر حتى خلت تركيا تقريباً من اللاجئين، العراقيين، السوريين، المصريين، المغاربة، الأفارقة، والجنسيات الأخرى. وازدهرت معها تجارة التهريب، أصحاب الفنادق، الشرطة التركية، أصحاب الملاهي والبارات قد تحولوا جميعهم لمهربين وكل حديث الشارع كان عن التهريب وكيفية الوصول الى بر الأمان في أوربا.

بعد انقطاع السبل في محاولة الوصول الى أوربا بطريقة شرعية رسخت فكرة التهريب في ذهني، بدأت البحث عن مهربين وإدراك مدى مخاطر الطريق وكيفية تجاوزها، وعرفت أن أفضل وقت يكون بعد انقضاء فصل الشتاء وبرودة الجو لأنه يكون عبر البحر لتجنب هبوب العواصف وارتفاع الموج الذي يؤدي الى إغراق السفن والزوارق بمن فيها، ونحن في شهر كانون الأول فيجب الانتظار الى بداية الربيع حيث يكون البحر هادئ والجو لطيف.

هنا تبدأ رحلة البحث عن مُهرب يستطيع الوصول بي وعائلتي الى أوربا بعد خسارتي لأكثر من ثلاثة عشر ألف دولار دون فائدة. تعرفت على شخص يدعى عباس وهو خال حمودي دودي جاري في الشقة مع حيدر وحسام الكظماوي، حسام شاب متزوج ولديه طفل واحد يعيش حياة مترفة وأموره جيدة في تركيا ولم يتطرق الى موضوع الهرب الى أوربا مطلقاً لاستقرار وضعه الاقتصادي لأنه يعمل في أعمال لا أعلمها، كان شاب محترم ومؤدب حدثته عن موضوع التهريب ولم يشجعني عليه بل أخذ يتحدث عن مخاطر الطريق ومعاناته ويمكن

أن أعرّض حياتي وعائلتي الكبيرة للخطر وبعدها لا ينفع الندم ولا يبقى مجال لتصحيح الأخطاء إن وقعت. كانت فكرته الدائمة السفر والوصول الى هناك بشكل رسمي ومهما كانت مكلفة، لكنه اقتنع بالفكرة بعدما حدثته عن الأموال الطائلة التي صرفتها ومحاولتي ذلك دون فائدة وأخذ يشجعني البحث عبر طريقة آمنة وسهلة لأن كل منطقة لها طريقتها الخاصة، منها بري يكون مشياً على الأقدام الى هنغاريا أو بحري يكون الانطلاق فيه من بحر إيجة والوصول الى اليونان من ثم بلدان أوربا.

بحثت في مواقع التواصل الاجتماعي حتى وجدت "تجمع اللاجئين العراقيين في تركيا" كان الشباب يتناقشون فيما بينهم عن طرق التهريب وأسهلها، وتنشر فيه يومياً مقاطع لأشخاص عراقيين تمكنوا من الوصول عبر البر أو البحر، ويعممون أسماء المُهرّبين وأرقام هواتفهم وعناوينهم، وكانوا عبارة عن درجات أولى وثانية وثالثة، والدرجة الممتازة يطلبون مبالغ كبيرة لأنهم يستعملون عربات حديثة وسريعة في التنقل مع اجتياز مسافات قليلة مشياً على الأقدام على العكس من الطرق الأخرى الرخيصة التي تتطلب المشي لمئات الكيلومترات وسط الغابات والأحراش لأيام طويلة.

أضفت الصديق عباس أبا غسان الى التجمع وتابعنا معاً ما يجري وبحثنا عن طريق يكون مناسب لعوائل تضم أطفال ونساء، وتكونت لديه قناعة تامة بعد مشاهدته مئات الأسر التي تصل أسبوعيا الى أوربا، فأخذ يبحث عن طريقة مضمونه وسهلة للوصول فقرر أن يكون الطريق عبر محافظة سامسون المطلة على البحر لكثرة تواجد المُهرّبين فيها من مختلف الجنسيات. اتفقنا على السفر إليها للتعرف عليهم وجهاً لوجه ومتابعة الأوضاع من كثب، وتكلفة الرحلة وبقية الأمور الأخرى المبهمة قبل الانطلاق. وصلنا الى مدينة سامسون وتعرفنا على الكثير من العراقيين وأحدهم صديق تعرفت عليه سابقاً عن طريق الفيس بوك نقلنا الى مُهرب عراقي التقيته في إحدى المقاهي وقلت له: أريدك إن تحدثني عن طريق التهريب بالتفصيل الممل.

- حسناً. بعد منتصف الليل تصل سفينة صغيرة تسمى لنج تقف في وسط البحر لأنها لا تستطيع الرسو على الشاطئ بدون مرفأ، نقوم بنقل الناس بواسطة زورق مطاطي صغير على شكل وجبات لحين اكتمال العدد، ثم نبحر لثمانية أيام حتى نصل لإيطاليا فكل طرق تهريب مدينة سامسون يكون باتجاهها.
- هذا كل شيء!
- يوم السفر تجلب ما تحتاجه عائلتك من ماء وطعام وغيرها وتعدّها سفرة عائلية للاستجمام في البحر لحين الوصول.
- وكم تبلغ كلفة تهريب الشخص الواحد بهذه الطريقة؟
- عشرة الاف دولار.

أكيد سوف يسهل الأمور بهذه الكيفية لأنه مُهرب. لكني عرفت من التجمعات بأنها طريقة خطرة جداً حيث يوضع الهاربون أسفل السفينة في حوض حديدي مغلق تماماً ولا يبصرون النور بأعينهم طوال فترة الرحلة خوفاً من خفر السواحل، بالإضافة الى أهوال ومخاطر مُرعبة لا يتخيلها العقل، لكن أغلب الناس تجبر على الهرب بهذه الطريقة المميتة كونه أسرع من الطريق البري.

بقينا يومين في مدينة سامسون وحصلنا على الكثير من المعلومات المهمة واتفقنا على رفض فكرة الهرب بهذه الصيغة، لأنها تتطلب البقاء وسط البحر الخطر لفترة طويلة بالإضافة لتكاليفها الباهظة وصعوبات عديدة أخرى قبل قرارنا العودة الى أسكي شهر.

التقيت بشاب عراقي في أثناء نزولي من العمارة قد سكن حديثاً فيها، تعرفت عليه يدعى أسعد الفريجي. نقيب سابق في الداخلية ينوي الهرب من تركيا والوصول الى بلجيكا بأي طريقة ممكنة حتى وإن كانت باهظة وبأسرع وقت ممكن لأن أحد أقاربه ينتظره فيها، كان قلقاً للغاية وشعرت بأنه مطلوب أو مطارد من أشخاص لم يخبرني عنهم. ألتقى أسعد وحسام الكظماوي في الشقة وتوطدت علاقته معهم فسكن معهم في الشقة وبعد أسبوع وصل إليه أصدقاء من بلجيكا، التقيت بهم كانوا قد جلبوا معهم هويه وجواز وتأشيرة دخول مزيفة وتحدثوا عن طريق التهريب بواسطة سيارة من تركيا وصولا الى بلجيكا، لكنه رفض لصعوبتها وكثرة مخاطرها بسبب كثرة نقاط التفتيش بين الدول وتدقيقها المضاعف بعد انتشار عمليات التهريب الواسعة، فحاولت الاستفادة من تواجدهم ومعرفة أسهل طرق الوصول وأين تكون أكثر نقاط التفتيش تشدداً في المتابعة، حتى علمت بأنها مجازفة كبيرة لأنها تخضع لمراقبة مشددة ومن الصعب تجاوزها في الوقت الحاضر.

حدثت أسعد بعدها عن رحلة سامسون فطلب رقم جوال صديقي العراقي المتواجد فيها لأنه ينوي الوصول الى إيطاليا ومنها الى بلجيكا. قام بالسفر الى سامسون وبقيت على اتصال به لحين وصوله للمُهرب والاتفاق معه وصعوده على ظهر السفينة ثم انقطعت أخباره بشكل مفاجئ وكان من المفروض أن يصل الى إيطاليا بعد أسبوع، لكن مر شهر دون خبر منه، حاولت الاتصال به يومياً دون فائدة كنت أنوي الاستفادة من تجربته لمعرفة المصاعب التي واجهته لكي اللحق به إذا كانت الطريقة جيدة وآمنة.. لكن أين هو الآن؟

فكرت في الهرب عن طريق اليونان فكما عرفت من تجمع اللاجئين يكون الخطر في أثناء اجتياز بحر إيجة وصولاً الى احدى الجزر اليونانية، حيث يتم احتجازنا فيها لأيام ثم نكمل طريقنا باتجاه أوربا وخطورة البحر تكون قليلة، لأن فترة الإبحار على الزورق المطاطي لا تتجاوز الساعتين، بالإضافة إلى أنها طريقة غير مكلفة حيث يكون مبلغ تهريب الشخص ألف دولار. اتفقت مع عباس بعدها على أن يكون طريق هربنا من أزمير.

تابعت تجمع اللاجئين وحصلت على رقم هاتف مُهرب لبناني يقوم بالتهريب عن طريق أزمير-اليونان. اتصلت به واتفقنا على اللقاء في أزمير وذهبت برفقته الى هناك حتى وصلنا إليه وكان يسكن في شقة كبيرة مطلة على البحر. رحب بنا وجلسنا نتحدث وأخبرنا بأن التهريب يكون بواسطة زوارق ثنائية صغيرة والتجديف بها بواسطة الأرجل لساعة من الوقت حتى تصل لسواحل اليونان هذه الطريقة مخصصة للشباب ولا تصلح للعوائل، وحصلت منه على أرقام مُهربين وعرفت أن هنالك طرق للتهريب بالزوارق المطاطية وأخرى باليخوت وحذرني من الأخيرة لأنها كبيرة يمكن رؤيتها والإمساك بها بسهولة من قبل خفر السواحل التركية أو اليونانية. بقينا يومين في أزمير وتعرفنا على الكثير منهم وأغلب طرق تهريبهم كانت متشابهة ونتائجها واحدة، رفضت الفكرة أيضاً بسبب مخاطرها الكبيرة وعواقبها الوخيمة فعدنا الى أسكي شهر نجر أذيال الخيبة.

بعد العودة اتصل بي زوج خالتي من السويد وتحدثنا عن طرق التهريب ومخاطرها وأخبرني بأنه قد وصل أوربا عن طريق مصر بعد أن سافر اليها وطلب اللجوء الإنساني فيها ومنها وصل إلى الإسكندرية، وهرب داخل سفينة وبقي لمدة أثني عشر يوم وسط البحر لحين وصوله السويد وطلبه اللجوء هناك، وبعث رقم جوال صديقه المُهرّب حازم في أزمير بعد معرفته تواجدي في تركيا ونيتي الهجرة. فاتصلت بالرجل ونصحني بالانتظار لفترة طويلة لأننا في شهر شباط وأمواج البحر قوية وشديدة البرودة وكثرة العواصف في مثل هذا الوقت من السنة، لذا يتوجب عليّ الصبر والانتظار لغايه حلول شهر نيسان وما بعده.

ما إن حل شهر آذار حتى أخذت الاف البشر بالهرب. عاودت الاتصال بحازم واتفقنا على الوصول إلى أزمير والسكن في فندق مدفوع الثمن من قبله، قمت بتصفية أغراض الشقة وسلمتها لأصحابها وأودعت عند الجار أحمد جوازات سفر أفراد العائلة ما عدا جوازي لأني سوف أحتاجه عند أستلام الأموال من العراق. أخبرت صاحبي بذلك فرحب بالأمر وقرر مرافقتي، وصلنا الفندق بحسب العنوان وسكنا في الغرف المحجوزة بأسمائنا، كنا حذرين في الدخول والخروج كي لانجلب الأنظار لأن أزمير مشهورة بأنها مدينة التهريب إلى أوربا، أخبرني حازم - عليكم البقاء وعدم الخروج إلا عند الحاجة القصوى، سوف أتصل بك بعد وصول باصات صغيرة تأخذكم للنقطة وإيجار الغرفة مدفوع لثلاثة أيام فلا داعي للقلق.

تعرفت على شاب سوري في أثناء تواجدي في صالة الفندق كان يتحدث مع بقية العرب المتواجدين وذكر بأنه كان مُهرب سابق واليوم ينوي الهرب، أخبرني بشيء مهم وقال - عليك عدم تثبيت المحرك بالزورق بقوة ففي حال مشاهدتكم من قبل خفر السواحل اليونانية يسهل عليكَ فتحه ورميه في البحر بسرعة، فعندما يجدون الزورق بدونه يكونوا مجبرين على أخذكم لليونان وهذا ما تريدونه، أما إذا كان بمحرك فيجبرونكم على العودة الى السواحل التركية ويراقبونكم بواسطة مناظير ليلية وأجهزة إنارة قوية للتأكد من عودتكم.

رن هاتفي وكان أسعد على الخط: أين أنت يا رجل، قلقت عليك كثيراً فقد مر شهر دون اتصال منك.

- لقد نجوت بأعجوبة يا صديقي إياك والسفر بالسفينة كما فعلت.
- لماذا ما الذي حصل؟
- بعد تسليمهم المبلغ كان من المفترض أن تستغرق الرحلة الى إيطاليا أسبوعاً فقط بحسب الاتفاق الذي تعلم به.
- نعم.
- رأيت الموت بعيني كل يوم، الزورق المطاطي الذي أوصلونا به الى السفينة وسط البحر مخصص لعشرة أشخاص قد وضعوا فيه ثلاثين فرداً. والسفينة صغيرة الحجم عبارة سجن من حديد والعشرات محشورون داخله، الكثير من النساء والأطفال الرضع الذين يبكون دون انقطاع، ولم يكتمل العدد المطلوب إلا عند الصباح فبقينا داخل السفينة لغاية المساء لأنهم لا يستطيعون الإبحار في وضح النهار، أبحرنا في المساء وبقينا في البحر خمسة أيام، البعض أصابهم دوار البحر وأخذوا يتقيؤون لأيام دون انقطاع والرائحة الكريهة أجبرتني على التقيؤ بشكل دائم حتى أصبت بالجفاف وكدت أموت.
- يا ألهى.. لماذا لم يخرجوكم الى متن السفينة!
- منعونا خوفاً من شرطة البحار.
- وماذا حصل بعدها؟
- توقفت السفينة بشكل مفاجئ وقالوا إن المحرك قد تعطل. بقينا لثلاث أيام وأجبرونا على الاقتصاد الشديد في تناول الطعام وعدم الإسراف في شرب المياه لأنهم لا يعلمون فترة بقائنا وسط البحر حتى اقتصر غذاؤنا في النهاية على وجبة واحدة وكأس ماء في الصباح والأخر في المساء، حتى نفد الأكل تماماً وأوشك الماء على النفاذ. طلبت منهم بعض المأكل لسد رمق العوائل واعطوني القليل من التمر والخبز اليابس المتعفن. كانوا على اتصال دائم لطلب المساعدة وتقديم الإغاثة دون فائدة، وندمت على ما فعلت وتمنيت لو أنى لم أولد لهذه الحياة البائسة.
- وكيف وصلت أذن؟
- تمكنوا من تصليح المحرك وتشغيله في النهاية.
- حمداً لله، وماذا فعلت بعد وصولك؟
- أنزلونا في الميناء وأخذونا بسيارات الشرطة الى المخفر وقاموا بأخذ بصمة إبهام واحدة ثم نقلونا الى مركز خاص باللاجئين، وبعدها حجزوا لنا في فنادق مع توفير الطعام والمستلزمات الأخرى.
- وأين أنت الآن؟
- بقيت يومين في إيطاليا وبعدها وصلت الى بلجيكا.

- أتمنى لك السلامة. لنبقى على تواصل.

هنا بالتحديد حذفت فكرة الهرب الى إيطاليا عن طريق البحر نهائياً من ذهني، وفكرت بأسلوب أخر مختلف يكون عن طريق أزمير باتجاه اليونان. سمعت طرقاً على باب الشقة في تلك الأثناء وكان ولدي علي وعائلته وأبنتي سرى وابنتيها فقد قرروا العودة إلى تركيا بعد يأسهم من قدرتهم على العيش في العراق. رحبت بهم وتحدثنا عن الوضع في البلد وكل ما يحصل فيه، وانتظرنا ما سوف تسفر عنه الأيام اللاحقة.

بقيت أتابع تجمع اللاجئين العراقيين في تركيا وتعرفت من خلاله على شخص يدعى كاظم الحلاق بعد نشره مقطع فيديو في أثناء وصوله الى صربيا، فاتصلت به وأخبرني عن طريق هروبه فطلبت منه رقم جوال الرجل الذي نقله من أزمير وأوصله الى هناك، عرفت بأنه جيد وأمين سوري الجنسية يلقب بأبي عبدو وبعثه ألي. اتصلت به على الفور واتفقنا. أخبرت حازم بالموضوع وخطورة تأخر بقائي في الشقة لأني مراقب وكل يوم يمر يرتفع مستوى الخطر أكثر، فتفهم الأمر وتمنى لي حظاً سعيداً وأخذ يعتذر لعدم استطاعته تهريبي في الوقت المحدد ولا يريد تأخيري أكثر من ذلك.

خرجت مع الأسرة في الساعة السادسة صباحاً صعدت الباص من المرأب باتجاه أزمير بعد أن أرشدني أبو عبدو على شقة مستأجرة لحين موعد التهريب، وبعد مرور يومين اتفقنا على مبلغ عشرة الاف دولار مقابل تهريب عشرة أشخاص بالغين دون الأطفال ويكون الدفع بعد الوصول الى اليونان، بشرط أن يبقى أحد أقارب عباس عند صديق أبو عبدو في تركيا كضمانة لحين وصولنا الى اليونان.

بعد مرور يومين من إقامتي بالفندق وردني اتصال منه: عليكم التهيؤ للسفر مساء اليوم.

- حسناً.
- عليك شراء نجادات للجميع بالإضافة الى سكين متوسط الحجم مع ضوء ليزر كاشف وكل هذه المستلزمات تجدها متوفرة في السوق القريب من الفندق.
- وما الحاجة للسكين ولماذا متوسط الحجم بالتحديد!
- لأنه إذا كان أطول من ذلك يعتبر سلاح قاتل فيقومون بحبسك بسببها من ثم تهجيرك الى تركيا ومنعك من دخول الأراضي اليونانية مرة أخرى.
- دعنا منه إذا.
- كلا. لا بد أن تشتريه فهو ضروري جداً. بعد وصولكم الى الشاطئ يجب عليك تمزيق الزورق والتأكد من غرقه في البحر فاذا وجدوه خفر السواحل سوف يقومون بالتفتيش عنكم لحين اللقاء القبض عليكم.
- وضوء الليزر الكاشف؟

- في حال تعطل محرك الزورق وسط البحر وهذا ما يحدث غالباً تقومون بفتح الضوء بجميع الجهات حتى باتجاه السماء، لكي تتمكن السفن التركية أو اليونانية من العثور عليكم وإنقاذكم.
- حسناً. سأكون جاهزاً في الموعد.
- كن على حذر وتصرف بحكمة دائماً.. الى اللقاء.

في برلين

نقلتنا باصات إلى الهايم شكله مثل بالون كبير يشبه مسرح الخيمة في بغداد فعدت بذاكرتي عند رؤيته الى هناك عندما كنت أتابع العروض المسرحية التي تعرض فيه على مدار الأسبوع. كنت مع بقية الأصدقاء نرتدي أجمل ما لدينا ونتأنق لنذهب إلى المسرح مساء كل خميس نضحك مع عشرات العوائل بشغف، نخرج بعد انتهاء العرض لنتمشى في شوارع العاصمة الساحرة قرب دجلة ونتناول وجبة العشاء السمك المسقوف على حدائق أبي نؤاس قبل أن نعود بعد منتصف الليل. كيف وصلنا لهذا الحال؟ كيف تحولت من مُشاهد مستمتع إلى ممثل بائس في عرض مسرحي حزين على خشبة مسرح الحياة ويتفرج على وجعي العالم أجمع!

كان مقسماً من الداخل على شكل غرف واسعة، جميع الموظفين من رجال ونساء معاملتهم لطيفة وجيدة مع اللاجئين يوفرون كل ما نطلبه، الحمامات نظيفة وجاهزة على الدوام. أقاموا في المساء حفلات استمرت لغاية الصباح للترفيه عن نفوس المهاجرين بعد كل ما عانوه قبل الوصول. استيقظت صباحاً ولم أصدق عيني بأني ابدأ يومي الأول في أوربا. وصلت منظمات إنسانية ووزعت الطعام باختلاف أنواعه وأشكاله بإشراف طباخين أتراك. واستلمت بعدها أوراق خاصة لمساعدة اللاجئين تحتوي على مبلغ أثني عشر ألف يورو للفرد الواحد لمدة أربعين يومٍ مخصصة للسكن في فندق بحسب رغبتي واختياري وثلاث وجبات طعام في اليوم ومخصصات ملابس صيفية والبقية مصرف جيب. ثم وزعوا عائلتي على أكثر من هايم فسكن ولدي علي وعائلته وسط مدينة "راينكن دورف reinickendorfer" وابني حمودي في شقة بعيدة عني فأخبرت المترجم - يجب أن يسكن ولدي بالقرب مني من أجل متابعته ورعايته فهو بعمر تسعة عشر عاماً.

- هو لم يعد طفلاً بل رجل فقد تجاوز سن الرشد، وهنا كل فرد له شخصيته وحريته المطلقة في اختيار مكان سكنه.
- لكننا الآن في الغُربة ويحتاج بعضنا البعض.
- بل أصبح جزء من مجتمع كل فرد فيه له حقوق وعليه واجبات.
- لن أسمح بذلك أبدا. إذا بقي ابني لوحده سوف أقيم هنا في الدائرة ولن اخرج منها. فدخل المترجم على الموظف وأخبره بالقصة فوافق على تواجده معنا في المكان نفسه.

اتصلت بابن خالتي إسلام المتجنس في ألمانيا وأخبرته بأني أريد شقة خاصة فلا أروم السكن في فنادق بعد كل هذه المعاناة، اتصل بسمسار وكان الرجل بانتظاري بعد خروجي من الدائرة يدعى أبو حمزة الفلسطيني، ذهبنا لشقة مؤثثة بالكامل في مدينة "ميرين دورف

mierendorf" وتحتوي على كل شيء ويقع بالقرب منها سوبر ماركت ضخم، فأعجبتني واتفقنا على استئجارها وارجع لي مبلغ ستمئة يورو زائدة عن قيمة إيجارها. سكنت مع عائلتي في الشقة طوال مدة أربعين يوماً في حياة هادئة ومستقرة حتى تولدت بعض المنغصات، كانت في العمارة بعض العوائل المسلمة من سوريين وفلسطينيين، زوجة ابني علي التقت ببنات تعرفت عليهم في البالون وأبلغوها بأن المرأة هنا لها مطلق الحرية والانفتاح ولا يحق لأحد حتى زوجها محاسبتها أو منعها من أي شيء ترغب فيه فانجرفت معهن بشكل غريب وتناست عادات وتقاليد المجتمع الذي ولدت فيه بعد تفسيرها مفهوم الحرية والديمقراطية بشكل مشوه. بعد وصولنا وقعت زوجات ولديّ علي وحمودي بمشاكل كبيرة، حدثت لابني علي مشكلة مع زوجته وأخبرته بأن لها حقوق وحرية تامة وإذا تعرض لها بشيء سوف تقوم بإبلاغ الشرطة عنه.

وضعت رأسي على الوسادة وتوالت على ذهني الأفكار والتساؤلات الغريبة، لماذا كل هذا العناء والمجازفة والذلة التي واجهتها في طريقي؟ هل كان بالإمكان الاستغناء عنها والبقاء في البلد؟ لكن كيف يمكنني العيش برعب دائم، هل يستطيع الإنسان المواصلة بلا حرية! تلك الكلمة البسيطة لكنها كبيرة بمفهومها يتمكن البعض التخلي عنها أو جزء كبير منها ويكيف نفسه على العيش وسط الخوف والذلة ويحول حب الوطن أو الأمل بالمستقبل أو البقاء للعمل على تحسين حال البلد من الداخل شماعة يعلق عليها أحلامه البائسة.

تمارا

بعد انتهاء المدة عدت إلى "السوسيال آمت" مع عائلتي واستلمت مع زوجتي أوراق سكن في هايم بمدينة "شباندا Spandau " وصلت إليه واستلمت شقتي فيه. بناية ضخمة قديمة عرفت أن الجيش البريطاني قد قام ببنائها بعد الحرب العالمية الثانية. كونت علاقات حميمة مع العديد من العوائل العربية المقيمة هناك وتعرفت على فتاة عراقية مؤدبة ومبتسمة دائماً تقيم بجوارنا في أثناء دخولي العمارة. حدثت زوجتي عنها وكانت قد تعرفت عليها أيضاً وتدعى تمارا. تلتقي بها في الشقة عندما أكون في الخارج. طرقت الباب ذات يوم تريد تصريف العملة وقلت لها: كيف تكونين عراقية وبجوارنا ولم نعرفك للآن والنبي قد أوصى بسابع جار؟ فلا اصرف لك العملة إذا لم تدخلي لتناول الشاي العراقي معنا. ابتسمت وقالت قبل أن تدخل - أتمنى ذلك فأحيانا يكون الشعور بالغربة والإحساس بالوحدة قاتل، لكنك تعلم كثرة المشاغل في أوربا.

- هل أنتِ من بغداد؟
- كلا من النجف.
- أجدك وحيدة أين زوجك وعائلتك.
- كنت متزوجة والآن شبه مطلقة.
- يا للأسف، وكيف تم ذلك.
- قصتي طويلة وحزينة ولا أريد إزعاجكم بها.
- بالعكس.
- أنت طلبت بلسانك فتحمل النتائج.
- كلنا آذان صاغية.

سافرت من مطار النجف الى مطار تركيا ترانزيت ثم إلى مطار "مينشن" ولم أجده هناك فجلست في الصالة بانتظاره لأكثر من ساعة، لم يكن عندي سيم كارت يمكنني من الاتصال به ولا توجد خدمة الإنترنت فيه. وسط مطار كبير وواسع يغص بألاف المسافرين الواصلين والمغادرين، شاهدت رجل عرفت من ملامحه بأنه عراقي يجلس بالقرب مني مع زوجته ينتظران شخصاً ما، سألته أن كان بإمكاني استخدام هاتفه الجوال للاتصال برقم شخص كان من المفروض أن ينتظرني في المطار قبل وصولي، فاتصلت به وأخبرني بأنه سوف يصل عن قريب وطلب مني الخروج للشارع العام أمام بوابة المطار. خرجت وكان الهواء بارد منعش ونقي وعشرات مركبات الأجرة في حركة دائبة تنقل مئات المسافرين من وإلى المطار.

توقعت رؤية الفرح بعينيه عند وصوله وهو يلتقي بحبيبته وشريكة حياته، توقعته يأتي حاملاً أجمل أزهار أوربا وأعطرها لكنه وصلني بيد فارغة واللقاء كان خالياً من لهفة الشوق.

أبلغني بأنه كان في الدورة الخاصة بتدريب الأمن واضطر لتركها من أجلى، بالرغم من اتفاقنا المسبق أن يتركها للتفرغ لشهر العسل. شعرت بتوتره وقلقه وهو يهز قدمه باستمرار في أثناء جلوسه وبشكل غريب لم أتمكن من استيعابه، فحاولت تجاوز ما يجري وخلقت في ذهني جميع الأعذار المقنعة، ربما لأنه مشغول بعمله في هذه الفترة وقد يكون غير متأقلم مع وضعه الجديد وحياته الزوجية المختلفة لأنه كان وحيداً في أوربا معظم أيام حياته.

ركبنا القطار مع مئات المسافرين وعشرات الحقائب. وضعت رأسي على زجاج النافذة أشاهد الأشجار الخضراء يمشي الناس تحتها بملابس ملونة فوق بياض الثلج الساطع فسافرت بي الأفكار بعيداً هل سوف أكون موفقة في حياتي القادمة وهذه الخطوة الكبيرة التي خطوتها؟ هل أعبر بواسطتها للراحة والاستقرار والسعادة أم تسقطني في جهنم وسط هذه الغُربة الموحشة والقاسية!

بعد ساعة نزلنا عند محطة مدينة كلشنغ. أشجار عيد الميلاد وزينتها تملأ الشوارع والأزقة والساحات، كان الجو بارداً وخلت الطرق من المارة بعد مغيب الشمس. بدأت نتف الثلج تتساقط على الأرض وأصبحت لا أشعر بأطراف أصابع يدّي، أمشي بجانب نجاح والمرة الأولى التي أحس فيها بأن رجلاً صار بجانبي احتمي به وأتمنى إسعاده بكل ما أوتيت من قوة فقد ولدت في هذه الحياة يتيمة محرومة من عطف الأب وحنانه. مشينا لمسافة قصيرة حتى وصلنا الشقة.

أصبت بصدمة شديدة عندما رأيت أوربا لم تكن بالشكل الذي كنت أتوقعه حتى بعد وصولي المدينة كانت اعتيادية لا تختلف عن أحياء النجف بشيء، لكنها تتميز عنها بوجود الحرية للإنسان فقط، والحرية بسيطة جداً لكنها لا تقدر بثمن عند الذي يفتقدها ويبحث عنها دائماً.

الشقة في عمارة صغيرة من ثلاث طوابق وسط حدائق كبيرة أشبه بغابة. دخلتها وكانت تغص بفوضى عارمة ولا يوجد شيء في مكانه، أثاث بسيط قذر ومتهالك، طاولة طعام جرداء مصنوعة من الخشب، كتب وأوراق بريد مبعثرة على دولاب في ركن الغرفة، مشعاع تدفئة غازية بجانب الجدار مع ثلاجة صغيرة قديمة.

حضنني بقوة وأخذ يقبلني حتى شعرت بحرارة أنفاسه ثم اصحبني لغرفة النوم. كانت صغيرة لا تختلف عن باقي الشقة، تحتوي على نافذة تطل على الخارج مغطاة بستارة قديمة وقذرة، سرير انتبهت لرجله كان مكسوراً، خزانة ملابس صغيرة. خلع قميصه وشاهدت على ظهره لصقات غريبة الشكل وأخرى قديمة لونها أسود مزرق، سألته عنها مندهشة وقال: هي علاج جديد وصفها الطبيب لترك التدخين!

خرجت معه ذات يوم نتمشى في المدينة، كانت زراعية جميلة تملأ شوارعها الخضرة والأشجار، كان يرتدي قبعة صوفية مرسوم على مقدمتها تاج ملك قال: راقبي الناس كيف ينظرون لي وكأني ملك حقيقي، تابعي لمحاتهم كيف تنم عن حقد دفين وكأنهم يعرفوني بأني

أفضل حالاً منهم! دائماً ما أشعر بأني ملك يحاول الناس تقبيل يدي. حتى حين رؤيته للشباب يمشون في الشارع يقول هؤلاء مجرد شكل لكنهم فارغون من الداخل، على العكس مني فأنا موظف ولدي شقة وقوي في كل شيء! نجاح شخصية مزدوجة تعاني كثيراً ويشعر بنقص دائم لا أعرف سببه.

بعد عودتنا من التسوق جلب معه لحم أخذ يحدث أهله عن طريق كاميرا الجوال يجلس أمام المرآة ليمنعهم من رؤية شيء ويقول لهم: انظروا كمية اللحم التي اشتريتها اليوم، لكنه يتجنب رؤيتهم الشقة وأثاثها المتهالك.

في يوم مشمس من الشتاء خرجنا معاً لبحيرة قريبة وجميلة تسبح بها طيور البجع والبط، ذهلت بجمال الطبيعة الخلاب والأجواء الساحرة، كنت أتمنى لو أنى فراشة أنتقل من زهرة الى أخرى، كنت أحدثه لكنه كان صامتاً قلق ومضطرب ولا يتكلم بشيء، سألته: أراك مشغول دائماً وكأنك في عالم آخر وتفكر في قضية ما، أنا زوجتك وشريكة حياتك أخبرني ما الأمر لأن وضعك غريب وتصرفات مخيفة؟

- طبعاً أنتِ شريكة حياتي، اعذريني لانشغالي هذه الفترة لأني أعاني من بعض المشاكل في العمل وسوف أتجاوزها وأعود لطبيعتي عن قريب.
- تحدث معي عسى أن أتمكن المشاركة في حلها؛ أليس هذا واجبي!
- لا يمكنكِ ذلك أنتِ جديدة على هذا المجتمع وسوف تعرفين قريباً كم يتطلب الأمر من قوة للتغلب على مشاكله.. سوف أشتري قنينة جعة.
- نعم من حقك. لكن واحدة فقط لا تفرط في الشُرب لأننا في نزهة.

عاد وجلب قنينة أخرى بعد انتهائه منها، ثم الثالثة والرابعة حتى شرب الخامسة وبقي يتحدث بمواضيع غير مترابطة. مشينا لمسافة طويلة حتى شعرت بالتعب وهو لا يحس بشيء لأنه سكران فجلست على حافة الرصيف وقلت ـ لقد تعبت كثيراً ولا أستطيع المواصلة. عدنا للمنزل وفي الطريق ركن لتعبئة الوقود من المحطة واشترى المزيد من قناني الكحول ولم اسأله السبب، فكرت ربما شرب الكثير لأننا في سفرة ترفيهية.

ازداد توتره في الأيام التالية وأخذ يثور لأتفه الأسباب، قاسٍ في كلامه معي حتى بدأت أشعر بالخوف منه، أخبرني بعد مدة بضرورة الذهاب الى بلدية المدينة لتقديم طلب موافقة إقامة مؤقته قبل الدائمة. وأبلغني أن النظام هنا يتطلب أن تحمل الزوجة اسم زوجها لأن الإنسان عندما يحب شخص يحمل اسمه مدى حياته. فوافقت بعد معرفتي بأنها لا تتعارض مع هويتي وجواز سفري العراقي واستمرينا بالمعاملة وإكمال إجراءاتها.

بعدها توجهنا للسوبر ماركت لشراء بعض الملابس فكان بعد قياس كل قطعة يقول: صوريها وأرسليها لأهلك لكي يعرفوا كم من الملابس اشتريت لكِ!

- لماذا أبعث الصور لأهلي هذا شيء طبيعي كل الناس تشتري ملابس ما الغريب في ذلك! عندما كنت أختارها يجبرني على شراء ثياب طويلة ومحتشمة تكاد تكون مناسبة للجدات فقط، وكلما كنت اسأله هل أعجبه قميص أو بلوزة لا يبدي رأيه ويقول - أنتِ تختارين ملابسك على ذوقك الخاص وتتحملين النتائج فيجب أن تعتمدي على نفسك في كل شيء. فاخترت بعضها بدون رغبة.

بعد مدة ونحن في دائرة البلدية قال: يجب أن يتم أتلاف أوراقك العراقية لإنك سوف تحملين اسمي بعد زواجنا.

- لا أوافق على ذلك.
- هي مجرد إجراءات روتينية. ولو كنتِ تحبينني لقبلتي في الحال دون معارضة.
- هذا لا علاقة له بالحب. وافقت على التسجيل باسمك لكن على أن يبقى جواز سفري وأوراقي عراقية.
- لكنكِ تسببتِ بخسارتي مبلغ كبير من المال.
- كل المبلغ ثلاثون يورو فقط وسوف أدفعها لك.

حاول الضغط وإجباري بالعصبية والشدة والصراخ الدائم طوال الفترة اللاحقة ولم أوافق. فأخذ موقف مني نتيجة ذلك.

قلت لها - سوف احضر لكما أنت وسمية الشاي لأنه برد ولم تحتسوه.

- ألم أقل لك أنت طلبت مني الحديث وعليك تحمل النتائج.
- على الناس أن يبيحوا بمشاكلهم أفضل من أن تبقى محبوسة في النفس فتؤلم صاحبها لوحده، تخلصي من مشاكلك واعتبريها شيئاً لم يكن " أذا ضاق الصدر أتسع اللسان".
- ليس من السهولة التخلص من الحزن الذي نواجهه بالحياة.
- يكون سهلاً إذا تحدثنا به مع الآخرين.. أكملي يا بنتي.

دائماً ما أجلس قرب النافذة بعد حلول الليل، تكون الإضاءة خافته مع منظر الثلج الذي يكسو الشوارع التي تكاد تكون خالية من البشر، فاستشعر بذلك السكون المطبق الذي يخيم على أجواء المدينة. هدوء غريب تسمع معه صوت دقات قلبك، أرعبني ذلك الصمت الفظيع فكنت أحاول التخلص منه ببعض الموسيقى؛ دون فائدة.

خرجت معه ذات يوم نتمشى للتسوق من أسواق "النورما" القريبة من الشقة، بعد انتهائنا من التبضع سألني أي كيس أختار لحمله، فاخترت أحدهما لكنه كان ثقيلاً شعرت بالتعب ونحن نمشي في طريق العودة فأخبرته بذلك وقال - مهما كان ثقيلاً لا يمكنك التراجع عن قرارك وعليك تحمل نتائجه!

في يوم لاحق تسوقنا بضائع كثيرة من السوبر ماركت، فأخذ عربة التبضع معنا للشقة بالإضافة لكيس كبير وخيرني مرةً أخرى بين دفع العربة أو حمل الكيس؟ فاخترت العربة لأني توقعتها أسهل، كانت عجلاتها صغيرة وغير مخصصة للدفع على أسفلت الشوارع بالإضافة الى منطقتنا كانت متموجة بين صعود ونزول والثلوج تغطي الأرصفة وتعيق حركتها، تعبت من دفعها وطلبت أن يساعدني فرفض وقال: أنه اختيارك وعليك تحمل عواقبه دون طلب المساعدة من أحد. أخذت أدفعها ودموعي تتساقط على الثلج دون أن أنطق بكلمة لحين وصولنا للشقة.

- زوجك مدمن على الكحول ويعاني من مرض نفسي شديد.
- ليس الكحول فقط.
- وماذا أيضا!
- أثناء ترتيبي الملابس ووضعها في الخزانة لقيت في جيبه علبة سجائر بداخلها شيء غريب أخضر اللون ملفوف بالنايلون فتحته وكانت رائحته كريهة، فصورته وأرسلت الصورة إلى أخي في النجف وأخبرني بأنه حشيش!
- أنه يتعاطى المخدرات!
- نعم
- أكملي رجاء أن قصتك مؤلمة وقد تأثرت بها كثيراً.

سافرنا معاً الى بلجيكا لقضاء ليلة رأس السنة مع أقاربه بواسطة الباص من شركة "فلكس بوس" وكان يشرب مشروب قوي اسمه الروم مخلوط بالبيبسي طوال الطريق. أخذ يتحدث بكلام بذيء مع المسافرين واستهزئ بشاب عراقي كان مسافر معنا على الحافلة وحاول الانتقاص من قدره وقدر بلده العراق، شاهد شاباً فلسطينياً فانتقص من فلسطين وشعبها ووصفهم بأنهم بلا شرف ولا ذمة ولا ضمير وعملاء لإسرائيل، حتى وصلت المسالة الى التشابك بالأيدي لولا تدخل بقية الركاب ومنعهما من ذلك.

دخلنا حدود بلجيكا بعد طريق أكثر من سبعة عشر ساعة مع بعض فترات التوقف للاستراحة، أخبرني بأنه سوف يخرج للبار مع صديقاته ويبقى معهن لغاية الصباح. أعرفه جيداً، يتحدث هكذا لإغاظتي فأرد عليه ويخلق مشكلة يثور معها فبقيت هادئة وقلت له: أنت حر تفعل ما تشاء. وصل أبن خاله باسل للمرأب مع زوجته يسرى وأطفاله واصطحبونا بسيارتهم الى الشقة.

اتصلت بأهلي في العراق ونزلت دموعي لا إراديا فور رؤيتي عبر الفيديو كام أجواء الاحتفال والشموع وشجرة عيد الميلاد التي نقيمها كل ليلة رأس السنة، اشتقت إليهم كثيراً وشعرت أني بأمس الحاجة لذلك الشعور بالأمان والاطمئنان والسلام والألفة بين أفراد العائلة، تلهفت لحضن أمي الدافئ ورائحتها وشعرت بعدها بإحساس الوحدة المرعب.

كانت يسرى إنسانة رائعة، رأت معي تحضيرات أهلي للحفلة وشعرت معي بمدى سعادتهم وحنانهم وشوقهم لي. خرجنا معاً بعد الانتهاء من العشاء لمشاهدة الاحتفال برأس السنة والألعاب النارية، كانت الأجواء جميلة والناس يغمرها الفرح بقدوم العام الجديد، تجمعنا عند "نهر ميوز" الذي تقام بالقرب منه الاحتفالات ورأيت الألعاب النارية والرقص والغناء الذي يستمر عادة لغاية الصباح، لكن نجاح لم يكن بوعيه من كثرة احتسائه المشروب حتى عودتنا للشقة مع ساعات الصباح الأولى.

خرج نجاح في الصباح مع ابن خاله للتسوق وبعد عودتهما جلب معه قنينتين من الفودكا، جهزوا أدوات الشواء في الحديقة لتحضير وجبة الغداء. كنا جالسين جميعاً نمزح ونضحك لكنه بقي يشرب لوحده في الغرفة حتى فقد عقله تماماً بعد مدة وأخذ يتكلم بأشياء غريبة وتحدث عن زوجة باسل على طاوله الطعام أمام زوجها وقال: كنت أذمها ورفضت قرار زواج باسل منها لكنها الإن صارت جميلة ومهذبة وتهتم في بيتها وعائلتها. أعتبر باسل كلامه نوعاً من التحرش، فأمر أولاده الصعود الى غرفتهم وحدثت مشادات كلامية بينهما تطورت للصراخ. بقيت جالسة في مكاني أستمع لكل ما يدور بينهم ولا أعرف كيف أتصرف وسط ذلك الموقف المحرج، منظر نجاح كان سيئاً للغاية بعد أن وجدته مكروه من قبل الجميع. تركت الطعام ونهضت بعيداً عنهم وأخذت بالبكاء على ما وصلت إليه وندبت حظي لسفري والارتباط بمثل شخص كهذا، لحق بي وقال: لماذا تركتِ الجميع وتبكين لوحدك؟

- تسأل عن السبب وكأنك لا تعرف ماذا فعلت!

- أنها مشاكل عائلية تحدث في كل زمان ومكان.

- هم أقربائك وتزورهم مرة واحدة في العام، فلماذا تتسبب بالمشاكل وأنت ضيف عندهم. لن اسمح لك بفعل هذا بعد الآن.

- أنا الذي لن اسمح لكِ التدخل بتصرفاتي الخاصة.

- لكنك على خطأ وقد كرهك الجميع.

- لم أقصد الكلام الذي تحدثت به لأني في حالة سُكر. سوف أدخل وأعتذر منهم وينتهي كل شيء.

جاءتني يسرى بعد ذهابه وقالت - أتفهم موقفك وأنتِ امرأة جيدة وهذا لا يستحقك.

- أفكر بالانفصال عنه لأنه شخص غريب الأطوار لن أستطع الاستمرار معه، فهل تتمكنين من مساعدتي؟

- نعم بالتأكيد؛ لكن كيف؟

- أريد البقاء معكم لحين الطلاق.

- ربما عليك إعطائه فرصة أخرى.

- لكنه من النوع الذي لا يمكن إصلاحه، عشت معه لفترة قصيرة وعرفت شخصيته فهو يعاني من مشاكل نفسية خطيرة، ولم أحدثك بعد عما يفعله معي حتى في فراش الزوجية.

- أذا كان يمارس الجنس معك بالإكراه هذا ممنوع في أوربا ويعتبر نوعاً من الاغتصاب.

- نعم.. أنه يغتصبني كل ليلة.
- يمكنك طلب الطلاق بشكل رسمي.
- لن يدعني أقوم بذلك، صرت أخاف من تصرفاته كثيراً لأنه مدمن مخدرات.
- يا ألهى، كنت أتوقع ذلك، احذري منه لأنه قد يفعل أي شيء دون وعي.

بقينا فترة العصر نأكل الشيبس والمكسرات ولم أتفوه بكلمة مع أي أحد، وضع نجاح أولادهم بقربه وأخذ يحدثهم عن أشياء غريبة مثل وجوب قوة الشخصية عند الإنسان وعدم إطاعة أوامر حتى الوالدين ففي أوربا لكل شخص الحق بأن يصنع مستقبله بعيداً عن أهله. استغربت من وضعه كأنه يصنع المشاكل عن قصد ويستمتع بها، طلب الأب من أولاده النهوض لغرفتهم وعدم الاستماع لكلامه حتى لاحظت بأنهم يخافون عليهم منه. في الليل نمت في الفراش وسمعته يحدث نفسه " أنى لم أقم بشيء غريب أو سيء لقد مدحت زوجته ولم أذمها، لماذا ردة فعله الغريبة وهذا التصرف السيء...". رجل غريب الأطوار فعلاً.

في الصباح بعد الفطور جلس باسل معه وقال له: لا أريد رؤية وجهك في بيتي بعد اليوم، يجب عليك ترك زوجتك هنا لأنها لا تريد العيش معك بعد الآن.

- لن أترك زوجتي معكم مهما حصل.
- لكنها تريد الانفصال عنك.
- لدينا مشاكلنا الخاصة سوف نقوم بحلها معاً وهذا ليس من شأنكم.

ودعتهم واعتذرت على كل ما حصل قبل أن نخرج، وصلنا للمرأب فدخل للإدارة للحجز وقال بعد عودته - أن موعد وصول الباص بعد أربع ساعات من الآن، دعينا نذهب إلى حديقة الحيوان فهي قريبة لتمضية بعض الوقت. ثم أشترى علب الخمر من حانوت في الطريق، لم اسأله لماذا أو أؤنبه لأني وصلت لدرجة ألا أطيقه ولا نفع للكلام معه من الأساس. قال ونحن نمشي - لقد تفاجأت عندما سمعت من باسل بأنك تودين الانفصال عني هل هذا صحيح. وجوابي كان الصمت. بقي يتناول الخمر طوال تواجدنا في الحديقة وحتى بعد ركوبنا الباص، لكنه وعدني في طريق العودة بأنها سوف تكون المرة الأخيرة التي يتناوله فيها.

دخل ولدي حمودي في تلك الأثناء فقطعت البنت حكايتها ونهضت. لحقت بها للباب صرفت لها العملة وقلت - اعتبريني مثل والدك واطلبي أي شيء تحتاجينه، وأوعديني بأنك سوف تكملين قصتك في وقت لاحق.

اشتريت طباخ كهربائي صغير لتحضير الشاي وبعض الأكلات العراقية البسيطة، بالرغم من أنهم كانوا يوزعون الطعام لثلاث وجبات يومياً حتى ويخيرونا نوع اللحوم حسب ما نرغب مثل لحم غنم، بقر، أرنب. مع أنواع الأسماك البحرية والنهرية وأشكال الأجبان الأوربية على الفطور ومختلف أنواع العصائر والحليب، بأشراف طباخين أتراك وموزعين سوريين. بقيت فيه لثلاثة أشهر حتى تم نقلنا بواسطة باصات حكومية الى آخر أُنشى حديثاً في منطقة "تسيلندورف zehlendorf".

الهايم الجديد واسع مثل حي سكني على أطراف مدينة تحتوي مساكن راقية لرجال الأعمال، يحتوي قاعات رياضية وساحات وحدائق عامة وألعاب أطفال، الشقة فيها غرفتان للمنام وصالة للجلوس وصحيات ومطبخ ومؤثثة بالكامل، قرر علي البقاء مع عائلته حيث يسكن بينما انتقلت تمارا معنا وسكنت بجانبي.

بعد لقائي بإدارة الكمب عرضت عليهم تقرير طبي من "الكاريتاس" المنظمة الإنسانية التي تعنى بشؤون اللاجئين يؤكد وجود إصابة في ساقي يصعب معها صعود الدرج ونزوله، فمنحوني شقة في الطابق الأرضي قرب الحمامات. توطدت بعدها علاقتي بمديرة المكتب العراقية من أصل كردي كانت تسكن السليمانية وأصبحت صديقة للعائلة تدعى " فراو دوسكي" أي السيدة دوسكي ومساعديها موظفين مترجمين من جنسيات مختلفة.

كانت فترة جميلة والجو رائع والشمس ساطعة والهايم حديث نظيف ومرتب. بعد معرفة العوائل الألمانية المحيطة بالكامب بوصول اللاجئين أخذوا يأتون يومياً وهم محملين بمختلف السلع الزائدة عن حاجتهم. دراجات هوائية، ملابس جديدة، قطع أثاث، لعب أطفال، أجهزة كهربائية مستعملة. جمعتها الإدارة في المخزن وأسبوعياً تدخل العوائل تباعاً لتأخذ ما تحتاجه.

في اليوم السادس عشر من الشهر الحادي عشر للعام ٢٠١٥ شعرت بتول بالمخاض فأخبرت الإدارة بذلك، وصلتني سيارة إسعاف بعد مدة وأخذتنا للمستشفى وبقينا فيها ثلاثة أيام حتى ولدت نسلي الأول في أوربا. حفيدي "سيف" ذلك الطفل الذي قلب حياتنا رأساً على عقب فقد عشنا مع ولادته احتفالات مستمرة تزامناً مع حفل رأس السنة ودخول العام ألفين وستة عشر.

بعد انقضاء ثلاثة أشهر ذهبت مع العائلة لدائرة الهجرة لتجديد موافقة السكن في الهايم فتعرفت على رجل عراقي يدعى عيسى أبو جميل مع زوجته وولده، فطلب مني التوسط لنقله للهايم الذي نسكن فيه لأن مكانه الذي يسكن فيه قذر للغاية مع وجود شيشان يتجارون

بالمخدرات وانتشار الجريمة بالإضافة إلى المعاملة السيئة من الإدارة التي تعاملهم كأنهم سجناء أو أسرى. تحدثت مع المديرة وأخبرتها عنه فوافقت وتم نقله، أصبح مع زوجته هدى من أصدقاء العائلة نلتقي مساء كل يوم في الحديقة العامة.

دخلت للشقة ووجدت تمارا مع زوجتي تحضر الطعام في المطبخ، جلسنا نشرب الشاي سوية وقلت لها - أرجو إكمال قصتك فمنذ وقت طويل ولم أسمعك تتكلمي بها وصلت بالحديث لوعده بأنه سوف يترك الخمر، هل فعل؟

- نعم بالضبط لكنه لم يفعل!
- كما كنت أتوقع، وماذا حصل بعدها؟

استبشرت خيراً من وعده بأنها سوف تكون المرة الأخيرة التي يتناول فيها الخمور، بعد أن أخبرني بأنه بحاجة لمساعدتي في تجاوز هذه الأزمة التي يعيشها، لكني بدأت أخاف منه وعدم قدرتي على التعاطف معه. بقت شخصيته على حالها دون تغيير وأكثر ما كان يؤلمني هو انتقاصه من الأخرين، فكان يحاول التقليل من قدر كل إنسان يصادفه وقوله بأنه أفضل من الجميع. شخص عديم الشخصية ويعاني عقدة كبيرة من جيل الشباب.

بعد صعودنا للعمارة وقبل الدخول للشقة صادفنا شاب سلم علينا وأخبر نجاح بأنه عربي من سوريا لاحظت نظراته له كانت باستصغار واحتقار بدون سبب. ظل يخاف منه لأنه جارنا حتى أخبر صاحبة العمارة بأنه إرهابي محاولاً طرده، سألته ذات يوم: من يسكن بجانبنا فهم جيران ربما احتاجهم في شيء عندما تكون بالعمل.

- أنها عائلة سورية ولا أريدك التواصل معهم، لأن السوريين عصابات للسرقة والقتل والتهريب وتجارة المخدرات.
- ليس من المعقول أن يكون جميع السوريين أعضاء في عصابات!
- لقد قلت ما عندي وحذرتك من التعامل معهم. وانتهى الأمر.

رأيت الشك والقلق في نظراته، وأخذ يتابع تحركاتي باستمرار حتى كان يتعمد ترك عمله والرجوع للشقة وغالباً ما يدخل خلسة في اليوم الواحد عدة مرات. سألني ذات يوم - هل تحدثتِ مع الشاب السوري؟

- وما هذا السؤال الغريب!
- لأطمئن عليكِ فقط.
- لا أهتم بالشاب لو كنت أريد الاقتران بأحدهم لفعلت ذلك مع خيرة الشباب في بلدي قبل مجيئي والزواج بك، لأني لا أنظر للرجل بعمره بل لما يملكه من أخلاق وقوة شخصية. فهناك الكثير من الذكور والقليل من الرجال.

- لا اقصد ذلك. أثق بكِ تماماً لكني أخاف عليك وأحاول حمايتك لأنك لم تعرفي طريقة العيش في أوربا بعد.
- التي تحمل الأخلاق والتربية يمكنها العيش في كل مكان بكامل احترامها.
- أغار عليك من نسمة الهواء وهذا من حبي الكبير لكِ.

أثناء نزولنا بعد فترة صادفنا امرأة مع زوجها يسكنون الطابق الثاني وعرفت بأنها ابنة صاحبة العمارة، سلمت عليهما وصافحت الفتاة مع ابتسامة مجاملة على وجهي. بعد وصولنا للشقة قال بعصبية: انتبهت إليك جيداً في أثناء سلامك كيف تبتسمين وتنظرين للرجل.

- ماذا تقول! أنت تعلم بأن هذه طبيعتي مع الجميع ومن المعيب أن تتكلم معي بمثل هذا المنطق!
- كلا رأيتكِ تنظرين للرجل وعلى وجهك ابتسامه إعجاب.
- أصبح الكلام معك لا يطاق.

أقيمت بعد مدة في مقر عمله دورة تدريبية في مدينة فرانكفورت تستمر ليومين، كان قلقاً لا يريد الذهاب وتركي وحيدة ولا يريد التفريط بالدورة فحدثت بيننا مشكلة كبيرة، جلست بجانب المطبخ وأخذتني نوبة بكاء شديدة كنت اصرخ بصوت عالٍ: لماذا تعاملني بهذه القسوة وأنت في حالة توتر مستمر بدون سبب ولم أقصر معك بشيء، إذا كنت تعرف نفسك بأنك لا تستطيع العيش برفقة أحد لماذا قررت الزواج مني! هل تتقصد تعذيبي؟ لماذا يعجبك ألمي ومعاناتي. لقد فقدت طعم الحياة وانعدمت ضحكتي وبسمتي الدائمة بعد ارتباطي بك لماذا لم تتركني أعيش بجانب أهلي بسلام! أنت الوحيد الذي يجب عليه أن يشعرني بالأمان في الغربة لكني لم أحس به معك بل صرت أخاف منك أكثر من الغريب. كل يوم تشرب فيه الخمور أشعر بالرعب وعدم مقدرتي على النوم لغاية الصباح. أريد الموت والخلاص من هذه الحياة. أخذ يعتذر ويقول: لم أقصد هذا أبداً لكني عصبي بطبعي وأريد أن تساعديني على تغييره تدريجياً حتى الخلاص منه. قبل أن يخرج.

بقينا نتواصل على الهاتف الجوال ويذكر المناطق التي يصلها لحين وصوله للفندق، ويخابر بين الفينة والأخرى حتى عرفت أن ذلك بدافع الشك فقلت له: أريد الخروج لرمي القمامة لأن رائحتها الكريهة لا تطاق.

- بل تريدين الخروج للتعرف على شباب ألمان. اتركيها وسوف أرميها بعد عودتي، ويمنع عليك فتح باب الشقة والخروج منعاً باتاً، واعلمي أن عندي صديق في العمارة سوف يتصل بي ويخبرني حال خروجك.

لم أتمكن من الرد عليه. اختنقت وشعرت بضيق حاد في التنفس حتى خارت قواي وتداعيت على الكنبة، انهارت أعصابي نظرت لأصابعي وهي ترتعش بقوة. فتحت الشباك وأخذت نفساً

عميقاً شاهدت الناس وهم يمشون في الشارع ووقع بصري على كلب مربوط بحبل ليد صاحبه فحسدت ذلك الحيوان لأنه يستطيع الخروج والتنزه برفقة أحدهم بلا شكوك.

بعد عودته من الدورة في الساعة الرابعة كان مستلقياً على الأريكة قلت له: أريد الذهاب للتسوق قبل حلول المساء لأن الجو بارد والثلج يتساقط باستمرار.

- لا يمكنك الخروج من الشقة إلا بعد ولادة الطفل
- تقصد حبسي داخل الشقة لشهور!
- نعم ثم تخرجين معه لكي لا تثيري انتباه أحدهم.
- لكني أريد الذهاب لدورة تعلم اللغة الألمانية مثلما وعدتني بذلك.
- ليس من الضروري الآن تعلم الألمانية؛ اتركيها في وقت أخر.. وبالمناسبة أريد الذهب الذي قمت بشرائه لكِ لتسديد ديوني وأعيده إليك بعد فترة.

لم ارفض طلبه بالرغم من معرفتي أن حالته المادية جيدة لأنه موظف ولن يستدن المال من أحد لأن نفسه لا تتقبل ذلك.

بعد فترة جلب معه كمية كبيرة من الخمر وبقي يشرب في الشقة حتى وصل قمة النشوة قال: لدي سيجارة مخدرات "حشيش" أريد تدخينها.

- يا ألهى مخدرات. ألم يكفيك تناول الخمر طوال الوقت!
- لم أدخنه باستمرار بل في أوقات النشوة والمناسبات.
- أن الوضع قد وصل حداً لن اسمح به.
- جربيها مرة سوف ندخنها معاً ونعيش أجواء سحر متعتها الغريبة.
- تريد أن تجعلني مدمنة مخدرات مثلك!

تحدث معي بعد ذلك وأبلغني بأنه قد أصبح كبيراً في السن ويريد أن يرزق بطفل بأقرب وقت قبل فوات الأوان. لم تكن لدي رغبة بتأسيس عائلة وتحمل المسؤولية وسط هذه الأوضاع التي عشتها معه. كان يصر أن يتركني مستلقية على ظهري لأطول فترة ممكنة دون حركة، ويمنعني حتى من الذهاب للحمام إلا بعد حين ويبقى ينتظرني في الباب لحين خروجي منه. كنت خائفة منه لأنه كان سكران طوال الوقت.

خرجت معه الى المدينة، فقرأت عيادة طبيبة نسائية وحفظت طريق الوصول إليها لمراجعتها لاحقاً، وصلت للعيادة في اليوم التالي بعد خروجه وقلت بالإنجليزية والقليل من الألمانية بأني بحاجة ماسة لحبوب منع الحمل لأني غير متفقة مع زوجي وسط مشاكل مستمرة ولا أريد أن يولد طفل في هذه الفترة. لكنهم امتنعوا عن إعطائي الدواء. ذهبت للصيدلية وطلبته وامتنعوا أيضاً وبعد الحديث معهم عرفت بما معناه لا يمكنهم صرف أي نوع من الدواء بدون وصفة طبيب. حتى تواصلت بعدها مع أقاربي في هولندا للحصول عليه ولم أتمكن من ذلك.

أخذ يشك بي دائماً ويكرر اتصاله حتى خلال فترة وجوده في العمل. وصلت معه لحد لا يطاق فقد أجبرني بعد ذلك حذف برامج التواصل الاجتماعي وإلغاء كل الأصدقاء لأنه لا يريد تواصلي مع أحد. وحذفت كل شيء بالفعل لكني احتفظت برقم صديقة قد تعرفت عليها بعد وصولي. اتصلت بها وأخبرتها بقصتي وطلبت مساعدتها لأني بدأت أفكر بالانتحار والخلاص من هذا الجحيم الذي أعيش فيه. أخبرتني أن عليّ التحلي بالصبر قليلاً لأنها تعمل في منظمة حقوق المرأة وسوف تخبر مديرتها كي تتواصل مع فرع المنظمة في مينشن لمساعدتي، كنت أقوم بالاتصال بها بعد خروجه للعمل.

أخذت اسمي وعنواني الكامل وأخبرتني بأنهم سوف يأتون للشقة لأني لا أعرف أي مكان في المدينة ولا أملك المال ولا يسمح لي حتى بتعبئة رصيد الجوال، بقيت أنتظر لعدة أيام ولم يأتِ الرد وقالت بعد ذلك يتوجب عليّ لملمة ملابسي وتهيئتها في الحقيبة لكي أكون جاهزة في أي وقت يصلون به. كنت أجمعها صباح كل يوم وأعيدها للخزانة قبل وقت عودته مع الخوف والقلق من رجوعه المفاجئ، عشت أجواء صعبة لا تطاق. عاودت الاتصال بصديقتي ورجوتها أن تنقذني من وضعي البائس الذي أعيش فيه فلم يعد باستطاعتي تحمل المزيد. عاد أحد الأيام بشكل مفاجئ وسألني عن سبب وضع أغراضي في حقائب؟ أجبته وكل جسمي يرتعش من الخوف بأنها ملابس فائضة عن الحاجة والخزانة لا تكفي لحفظها.

عاودت الاتصال بها وقالت: يبدو أن الإجراءات قد تطول في المنظمة سوف أتصل ببنت خالتي في مينشن لكي تأخذك عندها لحين قرار المنظمة، لكن لا يمكنها أن تبقيك عندها في الشقة لأنها مقيمة وهذا يحاسب عليه القانون، سوف تأتيك مع زوجها ويقومون بتوصيلك الى مركز الشرطة.

اتصلت بي في اليوم التالي وكان يوم السبت: يجب عليك التهيؤ سوف نصلك بعد قليل بحسب العنوان، هل أنتِ متأكدة من عدم رجوع زوجك في هذا الوقت؟

- يبقى اليوم مع أطفاله من طليقته الألمانية.

جمعت حاجاتي في حقائب وأنا ارتجف لخوفي من عودته المفاجئة التي يقوم بها بين فترة وأخرى مع تواصلي المستمر مع أهلي في النجف لحين وصولها مع زوجها وأطفالها. كنت أبكي طوال الطريق ولم أستطع السكوت لما حل بي وما وصلت إليه دون ذنب. اشتريت سيم كارت جديد يحتوي خدمة الأنترنت لأخبر أهلي أين حل بي القدر.. أشارت لي لبناية بعيدة - هذا مركز الشرطة اذهبي إليهم وسوف يقومون بكل إجراءات حمايتك فلا أستطيع المضي معك لأنهم سوف يعتبروني متسترة على لاجئة وهذا يحاسب عليه القانون. شكرتها كثيراً ثم نزلت وتوجهت إلى البناية.

قلت لها: حسناً فعلتي عندما طلبتي من صديقتك مساعدتكِ. لكنك لو حملتي حقيبتك واتجهتِ لاي شرطي في الشارع كان سيقدم لكِ يد المساعدة حتماً.

- لا أعرف أحد يا عم؛ ولم أكن أعلم مصيري بعد طلبي ذلك من الشرطة، كنت أتوقع أن يسجنوني لأنهم يعتبروني لاجئة غير قانونية.
- هذا لا يهم الآن. ماذا حصل بعدها؟

كان الباب مغلق وبجانبه زر للجرس ضغطت عليه وقلت في الحاكية بالألمانية الجملة الوحيدة التي حفظتها عن ظهر قلب: أنى بحاجة الى مساعدة. أدخلني الشرطي وكلمني بالألمانية - أنا بحاجة الى مترجم أو أتصل بصديقتي وتخبركم عن حالتي لأني لا أتقن لغتكم. اتصلت بها وشرحت لهم قصتي الكاملة وقال: نحن لا نستطيع فعل شيء لأن زوجها لم يقم بضربها أو تعنيفها بإمكاننا نقلها الى مأوى النساء وهم يعرفون كيف يتعاملون مع مثل هكذا حالات. ثم أوصلوني الى مأوى النساء بسيارة الشرطة، استقبلوني فيه وشرحت لهم صديقتي الحال بعد اتصالي بها.

نساء مرعبات متهمات بمختلف القضايا من دعارة وسرقة وقتل وغيرها فلم يغمض لي جفن لغاية الصباح. تحدثت الضابطة مع صديقتي عبر الهاتف وقالت لها: أن أقامتها غير مكتملة لحد الآن وهذا صعب جداً فلا يمكن اعتبارها مقيمة ولا لاجئة، فأمامها خياران أما العودة الى زوجها أو طلب اللجوء، وإذا اختارت الثانية عليها الذهاب الى مركز الهجرة في مينشن.

- لكنها لا تستطيع الذهاب لأي مكان فقد وصلت منذ مدة قصيرة. قامت الضابطة بمساعدتي فطلبت سيارة أجرة على حسابها أوصلتني الى مركز الهجرة فشكرتها وودعتها بالدموع.
- تعلم يا عم عندما يحتاج المرء الى مساعدة ويقدمها له شخصاً ما مهما كانت بسيطة يشعر بأنه قد أصبح مثل أخيه لأنه قد منحه الأمل.
- نعم يا بنتي لقد شعرت بذلك بعد قراري الهجرة فلو امتنعنا عن تقديم المساعدة لبعضنا لفقدنا أملنا بالحياة.
- هل كنتِ تتوقعين أن يحصل لكِ ما حصل؟
- أبداً.. ولو كنت أشك بذلك لما قررت المجيء من الأساس!
- أنكِ تتوقعين لكن دون شعور، نفكر في عقلنا الباطن دائماً عن أسوأ الاحتمالات التي قد تحصل قبل كل خطوة جديدة.
- أذن هي من الوسائل الدفاعية التي يخطط لها دماغنا دون أن نعلم.
- نعم هذا ما اقصده بالضبط.. هل وصلتِ الى مركز الهجرة؟

دخلت فانتابتني نوبة بكاء شديدة، جلبوا مترجم قال: عليكِ أن تكوني قوية لأن جميع حقوقك محفوظه في هذا البلد، تحدثي بقصتكِ وأطلبي اللجوء أمام اللجنة يوم مقابلتك وسوف يوافقون على الفور. بصمت بالجهاز فعرفوا أني غير قادمة من أي بلد أوربي سابقاً. في تلك الأثناء

أخبرني المترجم بعد حديثه معهم: لا يمكنكِ الحصول على إقامة لأنكِ دخلتي ألمانيا عن طريق طلب لم شمل وليس عن طريق الهجرة!

أصبت بإحباط شديد لكني استسلمت للأمر الواقع وسلمت أمري الى الله. أن وافقوا على طلب لجوئي أم قرروا تسفيري الى العراق بكل الأحوال أفضل بكثير من عيش الجحيم مع نجاح. حتى وافقوا على منحي اللجوء في النهاية واستلمت ورقة للإقامة في كمب يسمى "بايو بايرن شتراسة" مع العنوان الكامل. بقيت لحين حصولي على تذكرة القطار وبعض المال. وصلت امرأة يزيدية مع ابنتين صغيرتين وبقت بجانبي لمساعدتي في حمل الحقائب وقالت: زوجي ينتظرني في محطة القطار وسوف أخذك الى هناك لأننا سوف نسكن المكان نفسه بحسب الأوراق التي تحمليها.

صعدنا في الباص حتى وصلنا المحطة والتقيت بزوجها وكان رجل طيب، تناولنا الطعام هناك وساعدوني في حمل الحقائب حتى وصلنا للهايم المؤقت الذي يجب علينا البقاء فيه لستة أشهر. طلبت البقاء معها لأني كنت خائفة بعد سماعي أخبار ما يحصل فيه من مشاكل واعتداء جنسي وغيرها. بعد دخولنا من البوابة شعرت بالرعب من نظرات الرجال المقيمين فيه من بلدان مختلفة وأغلبهم من العرب كأنهم وحوش جائعة تريد افتراسي فهم يستغلون وضع اللاجئات التي تجبرهن أوضاع الحياة على أن يصبحن وحيدات، حتى من كان يسألني عن زوجي أقول بأنه سوف يصل قريباً.

الهايم عبارة على أربع عمارات متقابلة مكونة من ثلاث طوابق، الأسفل مخصص للعوائل والمرضى ممن لا يتمكنون الصعود والنزول. والثاني للنساء حيث كنت أسكن ويمنع دخول الرجال إليه لأن الشرطة توصد البوابة بقفل إليكتروني خاص. والطابق الثالث مخصص للرجال. وسطه حديقة كبيرة تحتوي مساطب تكون ملاذ للعوائل وقت الظهيرة فتجد هناك من يجلس وحيداً مكتئباً بسبب الغُرّبة أو بعد استلامه قرار رفض اللجوء وأمر الترحيل وبعض الشباب ممن يجتمعون للاصطياد بالماء العكر. بجانب بوابة الكمب مستوصف خاص لطالبي اللجوء والموظفين فيه معاملتهم سيئة مع الجميع، لأن الطبيبة تشك في الجميع بأنهم يتمارضون لأن حالة المرض تسجل في قيد اللاجئ وتساعده في قبول طلبه. فلا تقدم المساعدة لأحد. لكني كنت امتلك بطاقة رعاية صحية أوليه تسمى "آوكا" فلا احتاجهم بشيء، والمستشفى قريب من الكمب وتعامل الممرضين جيد مع المهاجرين فقد ذهبت مع صديقتي مرتين بالإسعاف إليها لأنها كانت تعاني من نوبات صرع، يدخلوها لغرفة العناية مليئة بالأجهزة لتخطيط القلب والدماغ، بالمرة الأولى أصبت بصدمة شديدة وأخذت أبكي بشدة وناديت حراس الأمن وشعرت بالارتباك، لكني تعايشت مع حالتها وتعلمت كيفية التعامل معها دون الحاجة إلى الإسعاف، عندما تأتيها النوبة أضع شيء مطاطي بين أسنانها تصرخ بقوة ويتقلص جسدها بشدة ثم تهدأ تدريجياً.

أوصونا بالمبيت في منطقة خاصة لأنهم سوف يرحلونا غداً الى كمب آخر يبعد ساعة ونصف في مدينة تسمى "ريغنسبورغ" وصلنا إليه فمنحتنا الإدارة هويات للدخول والخروج وتحتوي على تأشيرات الوجبات الغذائية، تحدثت مع المترجم - أني خائفة جداً لأني وحيدة لا املك النقود ولم أستطع الذهاب الى أي مكان.

- عليها الانتظار لحين وصول موظفة حكومية مختصة بالنساء المعنفات. وصلت الفتاة بعد قليل وكان اسمها "سيمونا" ومعها موظفة مترجمة تونسية الجنسية أخبرتها بقصتي وسجلت كل المعلومات لدراسة حالتي مع "الكاريتاس" وأمرت بنقلي إلى غرفة خاصة لكني رفضت وقررت البقاء مع الفتاة الايزيدية، ثم سألتني - هل أنت حامل؟
- لا أعلم.
- ألم تجرين اختبار فحص الحمل من قبل؟
- كلا.
- هذه ورقة تحويل الى المستوصف الخاص بالكمب وسوف يقومون باللازم.

ذهبت الى المستوصف، اخذوا عينة من الدم وبعد فترة ظهرت النتيجة لتخبرني الطبيبة بأني حامل. أصبت بصدمة وشعرت بدوار شديد تهاويت في مكاني وفقدت الوعي، صحوت بعد مدة لا أعلمها كنت مستلقية على سرير في غرفة ويجلس بجانبي رجل كبير السن عرفت بأنه مترجم من أهالي الموصل قال لي: كل شي قابل للتصحيح وأخبرني الطبيب بأن يمكنك التخلص من الطفل لأنه لم يبلغ الستة أشهر بعد وهذا مسموح بحسب القانون، اتخذي قرارك فلا يستطيع أحد منعك، هل تريدين إجهاضه؟

- نعم. لأني لا أريد الطفل أن يتحمل ذنب والده المدمن ويعيش مثل طفولتي يتيمة.

تعبت كثيراً وتدهورت حالتي الصحية، عدت لسيمونا وأنا أبكي وأخبرتها بأهمية الخلاص من الجنين بأسرع وقت لأني بدأت أعاني من الوحم وعدم قدرتي على تناول الطعام وشرب الماء وأخذت أشم رائحة أشياء غريبة ولن أتمكن من النوم قليلاً إلا بعد وضع قشرة ليمون على أنفي. عانيت من الجفاف الشديد والهزال كان يغمى عليّ وأسقط على الأرض وأصحو على نفسي دون أن يعلم بي أحد.

لم تحصل الموافقة على أجراء العملية لعدم امتلاكي تأمين صحي فلم أكن مسجلة باسم عائلة زوجي ولا يمكنهم اعتباري لاجئة تتمتع بالتأمين لعدم حصولي على اللجوء بعد، في نهاية المطاف تم الاتفاق بين شركة التامين ودائرة الهجرة تحمل أجورها بالمناصفة.

تركت العائلة الايزيدية بعد اضطراب وضعي الصحي وعدم تحملي صراخ الأطفال المستمر وسكنت في شقة مع فتاة من بغداد اسمها جولي داومت على الذهاب إلى الكنسية يومياً. أجلس على إحدى مصاطبها وأمامي أيقونة عيسى المسيح تحتضنه أمه مريم العذراء بحنان،

أبكي بحرقة وألم لساعات حتى أهدأ وترتاح نفسي قبل أن أعود. وجدت سيمونا بانتظاري في الشقة أخبرتني بموعد العملية وذهبنا للطبيبة. عملت سونار كان الجنين بالشهر الثاني فحولتني على طبيبة العمليات، وقعت العديد من الأوراق بالتنازل عن الجنين وتحمل كافة المسؤولية وحددت موعد العملية.

ذهبت برفقة صديقتي للمستشفى وقبل دخولي صالة العمليات امتنعت عن إجرائها، تخيلت نفسي بأني سوف أقتل نفس بريئة بلا ذنب لكني في الوقت نفسه لا أتمنى له الحياة في هكذا أوضاع. وقعت في صراع نفسي شديد لا أعرف ماذا أفعل حتى قررت إجرائها بعد أن تأكدت أن ما أفعله صائب لأن ولادة طفل لمثل هذه الحياة جريمة لا تغتفر.

بعد عودتي للشقة لقيت رسالة بالبريد فيها موعد محكمة طلب اللجوء، ذهبت بحسب الموعد وجدوا بأني أعرف القليل من الألمانية لأني كنت احضر الدروس في الكمب، ثم حددوا موعد المحكمة اللاحق وخرجت عائدة.

اتصلوا من منظمة حقوق اللاجئين وأبلغوني أن اطلب من المحكمة قبل موعد المحاكمة أن تكون المُقررة والمُترجمة من النساء لكي أستطيع التحدث عما كان يفعله زوجي حتى في فراش الزوجية بحرية تامة. وبالفعل تم ذلك، دونوا أقوالي وتحدثت لهم بكل ما حصل، وقالت سيمونا: قدمي بلاغ للشرطة بان زوجك كان يجبرك على الممارسة الزوجية بدون موافقتك وهذا يعتبر اغتصاب والمعاملة السيئة والعنيفة التي كان يعاملك بها، وسوف نحجز لك موعد مع الشرطة بالاتفاق مع منظمة سلفودي المتخصصة بالنساء المعنفات. وبالفعل حضرت موظفة تدعى أيفا حددت لي موعد مع الشرطة.

في ذلك الوقت كان زوجي يتصل يومياً باهلي ويخبرهم بأنه سوف يتغير تماماً ويترك كل العادات السيئة التي كان يمارسها ويطلب عودتي للبيت. قال أخي: إما تعودي لبيت زوجك أو ترجعي للعراق.

- أن استطعت الفرار منه فلن أتمكن من ذلك بعد عودتي إليه فسوف انتحر قبل قيامي بذلك. لا أستطيع الرجوع لزوجي بعد كل تلك المعاملة العنيفة، ولا أريد العودة لأهلي في العراق بعد تلك النظرة السيئة على المطلقة من قبل المجتمع.

وصل موعد مقابلة الشرطة مع الموظفة أيفا صباحاً كانت ثلاث ضابطات وواحدة تكتب وتحدثت معهن بالتفصيل وبعد سماعهن القصة قالت إحداهن - ربما يسجن زوجك إذا لم يتم ترحيله.

- لا أريد أن أكون سبباً في ترحيله فقد يؤذي عائلتي في العراق. أريد التنازل عن الدعوى.
- سوف تأخذ القضية مجراها حتى لو تنازلتِ لأنه اغتصاب ولا يمكنك التنازل عن قضية تعاطي المخدرات لأنها جريمة يحاسب عليها القانون.

موعد محكمة اللجوء كان في الساعة الثانية والنصف من ظهيرة اليوم التالي، كانت بانتظاري مترجمة من الموصل ومقررة ألمانية تابعت تدهور وضعي الصحي واطلعت على التقارير الطبية وإجراء عملية الإجهاض ومضاعفاتها وتأثيرها على وضعي النفسي، فقد بدأت بعدها أشعر بالخوف والقلق المستمر وأتخيل هناك شخص يتابعني دائماً يريد قتلي أو الاعتداء علي. تأخرت كثيراً ولن أشعر بالوقت ولازمتني نوبة بكاء طوال حديثي وهي تسجل كل كلمة أتحدث بها حتى انتهينا في السابعة والنصف مساءً أي بعد مرور سبع ساعات، خرجنا ووجدنا المحكمة خالية وجميع أبوابها مغلقة.. شكرتهن على مساعدتي وعدت الى الشقة.

بقيت برفقة جولي مواظبة على تعلم اللغة الألمانية لثلاثة أشهر، وقبل خروجي من الكمب وصلت فتاة تدعى زهراء سكنت معي بالشقة تعرفت من خلالها على بنت من الحلة كانت هاربة من أهلها لأنهم كانوا يعنفونها ويضربوها ويتحكمون بنوع ملبسها ويجبرونها على ارتداء الحجاب، وزوجها قاسٍ يضربها باستمرار أيضاً وعندها طفلان قد حصلت على الطلاق بعد تنازلها عنهما ووصلت للزواج من صديقها السوري وتزوجا بالفعل.

كانت مشاكل مستمرة بين العوائل وأطفالهم بسبب الضغط النفسي الشديد لأنهم جميعاً بانتظار أمر المحكمة إما يوافقون على لجوئهم أو يتم رفضهم وترحيلهم الى بلدانهم. وهناك لوحة تضم أوراق البريد الخاصة بسكان الهايم تحتوي ردود المحكمة أو "الترانسفير" وهي النقل لكمب آخر، كان الجميع متسمراً أمامها كل صباح عسى أن تحتوي أمر نقلهم لمكان آخر أفضل من الذي هم فيه أو تخصيص رواتب بسيطة تمكنهم من المعيشة، لكن غالباً ما يتم رفض أغلب الطلبات.

الوضع مزرٍ في الكامب فكل قطاع يضم عشرات العوائل يحتوي على حمامين ومطبخ واحد، وقطاع تابع لإدارة الكاريتاس وهي منظمة تعنى باللاجئين المعوقين وتوفير التامين الصحي لهم. بجانبه الصف الخاص لتعلم اللغة الألمانية يديره معلم فيتنامي يضم طلاب أكراد وعرب من العراق وسوريا وأثيوبيا، يبدأ الدرس فيه كل يوم من الساعة التاسعة صباحاً لغاية الساعة الثانية عشر مع فترة استراحة بسيطة.

قطعت حديثها بعد رنين هاتفها الجوال وقالت: اتصلت أمي سوف اذهب للشقة للحديث معها ونكمل القصة في وقت لاحق.. اسمحوا لي.

جاءني ولدي علي وأخبرني بأنه يعاني من مشاكل مستمرة مع زوجته حتى بلغت الشرطة عليه وطردوه لأسبوعين من الشقة بحسب القانون. كان يحب زوجته لدرجة العشق ولم يرد لها طلباً حتى تصورت أن حبه ضعف، شكا لي بأن زوجته قد كونت علاقات مع صديقات وأصدقاء أجانب تخرج كل مساء ولن تعود قبل الصباح، ولا تسمح بسؤالها أين كانت ولا من أين عادت، اتصالاتها مستمرة حتى تركت مسؤولية بيتها وزوجها وتربية أطفالها. أُعجب بمكان

سكني وطلب نقله بجانبي بعد موافقة المديرة، بقي معي في الشقة لثلاثة أيام بعدها اتصلت بصديق وذهب للسكن معه لأن القانون الألماني لا يسمح ببقائه أكثر من هذه المدة.

أخبرت الإدارة ووافقوا على طلب نقله ومنحوه شقة من غرفتين وملحقاتها في الطابق الأرضي بالقرب مني. واظبت على الدراسة في كورس تعليم اللغة الألمانية، وتم قبول حمودي في أحد الأندية الرياضية المعروفة، وأم علي مع زوجة ولدي رتبوا البيت وجعلوه مثل جنينة، اشتريت تلفزيون وثلاجة إضافية وكانت الحياة جميلة هادئة ومستقرة. اتصلت بالبصري في المساء - أشعر بملل شديد هل تأتي لنحتسي القليل من الخمر معاً؟

- نعم. أنا بحاجة ماسة لذلك لكني لم أفعل لتوفير النقود.
- أذن تعال يا صديقي وأشرب حد الثمالة.

وصل البصري بصحبة سنان وجلسا بجانبي، كنت قد اخترت أنواع فاخرة من المزات عبارة عن فستق، وكاجو، وشيبس، وباقلاء، ولبلبي، وفواكه مختلفة. بالإضافة الى الشمعة التي لا أستطيع تناول الخمر دون النظر الى شعلتها وهي تتراقص مع النسمات ثم هيأت لهم وجبة عشاء مسبقاً عبارة عن تشريب زند خروف. وبدأنا بالكأس الأول وشربنا نخب أوربا والثاني نخب أوطاننا النائمة. ولما دب دبيبها في العروق سأل علي: كيف نكمل طريق الرحلة؟ أراد مواصلة الحديث لكني قاطعته - أتناول الخمر بحثاً عن الراحة والتخلص مما قد يسبب لي المتاعب ولا أفكر بشيء لكي أتهيأ للمرحلة القادمة، هي فترة هدوء وخدر وسكينة فتطرقوا لكل شيء جميل، الحب، الزهور، نكهة الطعام الذي تحبون، اسمعوا الأغاني الصاخبة. تخلوا عن طاقتكم السلبية بالرقص والمرح، أطلقوا النُكات وتجردوا من قبح الحياة لفترة قصيرة كي تتمكنوا من المواصلة.

- انتبهت لك وشاهدت دموعك عندما كنا في الكنيسة كنت تبكي بخشوع كأنك دخلت في مرحلة طوباوية مثل التصوف، كيف تتناول الخمور أذن وتعلم بانها محرمة!
- أتناولها بفترات متباعدة عندما أواجه توتراً عصبياً يحتم اتخاذ قرارات حاسمة ومصيرية وغالباً ما أكون بمفردي دون أن أؤذي أحد، اعدّها صمام الأمان للتنفيس عن ضغط الحياة المتواصل. ومن أخبرك أنها محرمة من الأساس!
- أذن هي وسيلة للهرب.
- بالعكس هي وسيلة للأقدام والقدرة على المواجهة ويعدّها البعض طريقة للأبداع.
- لكن تناول الكحول مذموم في الدين الإسلامي!
- نعم. لكن أغلب الخلفاء والأمراء كانوا يتناولونه في مجالسهم ليلاً وينهون عنه في الصباح، خذ مثلاً الوليد بن عبد الملك قيل قد كان له حمام خاص مملوء بالخمر يسبح فيه. وأبو نؤاس شاعر البلاط الذي كان يغرد شعراً لا يوصف بعدما يثمل.
- هل تحثنا على تناول الخمر والإدمان عليه!

- أبدا.. هو مثل كل شيء آخر لا يجب الأفراط فيه. لأن ذلك يؤدي بالنتيجة الى الضياع.

تناولنا الخمر وكسرت الحواجز التي كانت بيننا فشعروا بالحرية، غنوا، رقصوا، قالوا بعض النكات وضحكنا كثيراً. رأيت فيهم هموم مكبوتة قد تخلوا عنها وشعروا بالمتعة. انتبهت للبصري بعد مدة لم يكن موجود وسألت سنان ولم يعلم أين ذهب، خرجنا نبحث عنه في الشارع والحديقة العامة ولم نجده حتى عدنا للشقة، دخلت للحمام وأنا قلقاً عليه فوجدته غافياً في البانيو! ندهت سنان ووقفنا فوق رأسه وبقينا نضحك بصوت عالٍ حتى صحا من غفوته، دعك عينيه وفتحها بصعوبة قال: لقد حلمت بأني في زورق مطاطي في عمق البحر وسط عاصفة هوجاء وكدت أغرق. واصلنا الضحك حتى ونحن نتناول ثريد زند الخروف.

بعد مجيء علي وعائلته بقربي تعرفت زوجته على رشا زوجة جاري أبو جميل وتعرفن على شابة سورية. أخذن يجلسن معاً في الحديقة العامة ويدخنن النارجيلة ويخرجن كثيراً مع شباب غرباء مع اتصالات مستمرة، نصحتها وقلت: نعم هناك حرية لكن لها حدود لأننا تربينا وتعلمنا على أعراف وتقاليد يجب أن نتمسك ونلتزم بها، وإذا لم نفعل سوف تكون عواقب ذلك وخيمة.. لكن الكلام لم يغير شيء وأخذت تؤثر تدريجياً على زوجة حمودي ويخرجن معاً حتى أصبحت مثلها، عرفت بعد ذلك أن هدى لها علاقات واسعة بالشباب وأكثرها مشبوهة فحصلت مشاكل كبيرة وصعبة وأثرت على حياة أولادي بشكل كبير.

عرفت فيما بعد بأن مديرة الهايم كانت تكتب تقارير مستمرة عن زوجة علي لدائرة مختصة يسمونها شرطة الأطفال. تذكر فيها بأن علاقات الأم مشبوهة وغير مهتمة بأطفالها، تسهر ليلاً وتنام صباحاً وتترك أولادها يخرجون لوحدهم دون عناية واهتمام، دائما ما كانوا قذرين وملابسهم غير مرتبة تجلبهم جدتهم للشقة تنظفهم وتغسل ملابسهم وتسهر على تربيتهم.

في الشهر الرابع من العام ٢٠١٦ حصلت على الإقامة مع زوجتي لثلاث سنوات لكن لم تحصل موافقة علي وحمودي وهذا لا يختلف بشيء عن الإقامة، فيمكنهم العمل والسكن واستلام مبالغ المعيشة ما عدا منعهم من السفر خارج الاتحاد الأوربي.

شعرت بالضجر والملل فطلبت من زوجتي الخروج للنزهة في الحديقة العامة للهايم اصطحبت تمارا معنا، تجولنا بين ورد الحديقة وجلسنا تحت احدى الأشجار وطلبت منها إكمال قصتها وقالت: في نهاية الشهر السابع انتقلت الى كمب آخر داخل المدينة يسمى " ديزل شتراسة" يحتوي على جناح خاص للنساء فقط خالي من الرجال وحصلت بمساعدة سيمونا قرار الموافقة على الدراسة. بعدها بأيام وصلتني رسالة في الإيميل صادرة من محكمة الهجرة حاولت ترجمتها عن طريق الأنترنيت ولم يترجم بشكل مفهوم حتى طبعتها على ورق وذهبت الى مترجمة سورية، شاهدت فرحة كبيرة بعينيها وهي تقرأ وأخبرتني بأني قد حصلت على أقامه لثلاث سنوات وهذه نادر جداً لأنها لا تتجاوز السنة في أفضل الأحوال، وبعد الموافقة على طلب اللجوء سوف يخصص لي راتب شهري وتأمين صحي وامتيازات أخرى.. لذلك قررت

الخروج وتأجير شقة خاصة بمساعدة شاب تعرفت عليه من أهالي الموصل يعمل مترجم في دائرة العمل ومكتب البلدية وبقيت على تواصل معه، وقررت الفتاة السورية البقاء في شقتي بعد حصولها على موافقة الإقامة لسنة واحدة.

بقيت زهراء على تواصل مستمر معي تأتي الى شقتي مساء كل يوم وحكت لي قصتها بالتفصيل. كان أخوها يضربها فقررت الهرب من تركيا بمساعدة صديقها السوري وتزوجت منه بعد وصولها واستمرت حياتهما بشكل طبيعي قبل أن تعرفه مدمن على الخمر والمخدرات، أخذ يعاملها بعنف ويضربها باستمرار فقررت الهرب منه. اتصلت بي صباحاً أحد الأيام وأخبرتني بأنه ضربها وطردها من الشقة وهي الآن في الشارع لا تملك النقود فقمت بشراء تذكرة وحولتها اليها لكي تعود للمدينة، استمرت مشاكلهم لحين انفصالها عنه وحصولها على الطلاق، لكنها تغيرت بشكل كبير بعد ذلك، كونت علاقة مع صديقات سيئات وأخذت اسمع منها أشياء غريبة لم اسمع بها من قبل، أخذت تتعرف يومياً على شخص وتبيت معه لعدة أيام في شقته قبل أن ترجع. نصحتها كثيراً لكن دون فائدة.. فقررت الابتعاد عنها.

في الغربة أناس مختلفة كأنهم حيوانات في غابة كل منهم يحاول افتراس الآخر، قصص للاستغلال والنصب والاحتيال، علاقات مشبوهة وزائفة من اجل المصلحة وإشباع الرغبة فقط تختلف جذرياً عن الصحبة والشهامة في العراق. الأغلبية تعاني من نقص كبير وتحاول تعويضه بالمال. أغلبهم كانوا مشردين ومضطهدين ومسلوبي الإرادة في بلدانهم حصلوا على أموال وحرية مطلقة فتغيرت شخصياتهم نحو الأسوأ.

تعرفت على شخص حاول مساعدتي ونصحني بالانضمام لمنظمة تسمى "مالتيزا" سوف تساعدني في البحث عن شقة مناسبة، أرشدوني لمكتب عقار أوجد لي أحدها وذهبت اليها برفقة زهراء ولأني لا أعرف شيء عن أماكن البلد قمت بسؤال بعض الأصدقاء المقيمين فنصحوني أن هذا المكان سيء للغاية، عبارة عن حي لتجارة المخدرات وانتشار عصابات السرقة والجريمة وأغلب سكان المنطقة من العرب المقيمين، لكن صديقتي قررت البقاء بالرغم من معارضتي ذلك. حتى تمكنت صديقتي سيمونا من نقلي الى هذا الهايم في مدينة "شباندو Spandau" وأخبرتني بأنه جيد ومناسب، وحدث أجمل ما صادفني منذ وصولي الى أوربا هو لقائي بكم وتعرفي عليكم وما زلت أبحث عن شقة لحد الآن..

- أنا مثلك يا ابنتي أبحث عن واحدة أيضا.
- نعم وأريد البقاء بقربكم دائماً.

كثرت مشاكل ولديّ الأسرية حتى أصبحت يومية ووصلت لحد ولا يمكنهما الاستمرار زواجهما حتى افترقا بعد الطلاق. واستمرت مشاكل الهايم لوجود مختلف الديانات والقوميات والأقليات وانتشار تعاطي المخدرات بأنواعها بشكل واسع بين الشباب من أفغان وسوريين

وفلسطينيين وعراقيين، لأن القانون الألماني يسمح بتعاطي عشر غرامات من الحشيشة يومياً. قررت الخروج من الهايم وتأجير شقة خاصة بأي طريقة ممكنة بعد أن أصبحت عائلتي كبيرة مع وأولادي وأحفادي، وعرفت أن هناك قانون إذا كنت انوي إيجار شقة خارج الهايم فالحكومة تدفع أربعمئة وخمسين يورو فقط وتكملة بقية المبلغ من حسابي الشخصي، ولا يمكن البحث والحصول على واحدة بدون سمسار، لذلك يجب توفير مبلغ أتعابه بحوالي ستة الاف يورو وهذا كبير جداً بالنسبة لمهاجر لا يملك غير مساعدات الدولة التي تكفيه للسكن والطعام وبعض الملابس، لكني قررت الحصول عليها مهما تطلب الأمر من تضحيات. اضطررت لبيع حتى أجهزة الموبايل ونجحت بجمع المال وأعطيته للسمسار، حصلت على شقة مناسبة في مدينة "osloer strasse أوسلور شتراسة" والأخرى بجانبنا لتمارا بعد أن استلمت النقود من أهلها في العراق.

طالبت زوجة علي بأولادها ووصلت القضية الى المحكمة فحضر مسؤول منظمة رعاية الأطفال مع مترجم وبحث عن طبيعة معيشتهم بالإضافة الى التقارير التي كانت مسؤولة الكامب ترفعها باستمرار. كنت قد وفرت غرفة خاصة لهم تضم أسرتهم وألعابهم وبقية اهتمامهم، وتأكد المسؤول أن سكن الأطفال في شقة أفضل بكثير من العيش في الهايم مع والدتهم، ولديه تقارير تؤكد أن الأم غير صالحة لتربيتهم ثم أعطى لولدي ورقة تتضمن موعد جلسة المحكمة، حتى حكمت المحكمة على بقائهم في الشقة برعاية الأب وبأشراف الجد والجدة. شعرت باستقرار كبير بعد الخلاص من مشاكل أولادي الزوجية وطلاقهم وبقاء الأطفال معنا، بعد أن تمكن ولداي من الحصول على فرص عمل الأكبر مع حلاق سوري والأصغر رجل أمن في سوبر ماركت.

تشخيص المرض

أخذت أدخن بشراهة بمعدل ثلاث علب سجائر يومياً بعد مواجهتي للعديد من المشاكل الصعبة، التي تتعلق بعائلتي التي أعمل على أن تكون مستقرة منذ أن كنت في العراق، فأحسست بعودة ذلك الألم المزعج في الرئتين، حاولت بعد ذلك تقليل التدخين لكنه بقي ملازماً لي قبل النوم ولغاية الصباح وأخذ يزداد باستمرار. ذهبت فيما بعد مع زوجتي التي كان لديها موعد لزيارة طبيبة العائلة فأجرت لها فحوصات شاملة وأخبرتها بوجوب إجراء عملية في الغدة، ثم قامت بتحويلها إلى جراحة بدرجة بروفيسور لتحديد موعد العملية في مستشفى قريب. في طريقنا للمستشفى خلال نزولي سلم الميترو شعرت بحرقة شديدة وألم لا يحتمل فأخبرت الطبيبة بذلك، ففحصتني بالسماعة وحولتني لقسم الأشعة، رأيتها قد شعرت بقلق وارتباك بعد اطلاعها عليها أحالتني لمستشفى اختصاص يسمى المشفى اليهودي للتأكد من المرض واتجهنا إليه، مستشفى ضخم ونظيف شعرت بإنسانيتي بين أيديهم بمدى اهتمامهم وتأثرهم وعنايتهم بالرغم من أنى مجرد مسلم عراقي لاجئ، لأني إنسان مريض يحتاج للرعاية الصحية بعيداً عن عرقي وديانتي، أجروا أشعة للصدر ثم عدت لطبيبة العائلة، عندما نظرت للأشعة تباينت ملامح وجهها وغادرت الغرفة بدون أن تتلفظ بكلمة، عادت بعد فترة وأحالتني لمستشفى آخر تابع للصليب الأحمر للتأكد من نتيجة الأشعة وأخبرتني بضرورة اصطحاب مترجم عند مراجعتي، فرفضت زوجتي إجراء العملية لحين التأكد من حالتي الصحية.

اصطحبت معي صديقي اليمني صالح لأنه يتقن الألمانية. وبعد وصولنا أدخلوني إلى غرفة خاصة في ردهة الطواري ثم اجروا تخطيط للقلب وسحبوا عينة دم لأجراء التحليل قال صديقي - يتوجب عليك البقاء بالمستشفى لأيام لاستكمال كافة الفحوصات.

- حسناً. لكن يجب الرجوع لتبليغ العائلة بالأمر.

عدت بعد ساعتين، رحبو بي أوصلوني لغرفة تحتوي حمامات وجهاز تلفزيون وسرير وثلاجة وفراش أبيض نظيف وتلفون للاتصال في حالة الطوارئ. في اليوم الأول بقيت للتهيؤ لناظور العملية. احضروا طعام الفطور في الساعة الثامنة صباحاً وبعدها أدخلوني جهاز الرنين المغناطيسي وفحوصات أخرى لا أعلمها. وصلت زوجتي وأولادي للاطمئنان على حالتي وبقوا بجانبي حتى المساء وجاءت بعد مغادرتهم ممرضة ووضعت فوق راسي قطعة مكتوب عليها باللغة الألمانية "الأكل ممنوع" لأن الناظور يحتاج لعملية بنج عام.

وضعت رأسي على الوسادة وفكرت لماذا قررت الهرب ولم أبقَ في بلدي وتحمل النتائج كيفما تكون؟ ربما بسبب غريزة الخوف لدى الإنسان فالخوف مهم لاستمراره في الحياة. تخيلت أجدادنا القدماء في زمن ما قبل التاريخ وهم مختبئون داخل كهف، هاجمهم حيوان مفترس فتحلى أحدهم بالشجاعة فهبّ لمواجهته فكان مصيره الافتراس فقطع نسله وفقدت البشرية الشجعان تدريجياً، أما الآخر فقد فكر بالهرب للنجاة بحياته والخلاص من الموت فأولئك هم من تكاثروا واستمر نسلهم على الأرض ونحن منهم. فنحن أبناء الجبناء الذين استخدموا عقولهم ووجدوا طريقة مناسبة لاستمرار نسلهم من بعدهم إلى يومنا هذا!

في الساعة الثانية عشر من ظهيرة اليوم التالي أخذوني لصالة عمليات، غرفة كبيرة تحتوي الكثير من الأجهزة الغريبة والممرضات الشقراوات الجميلات بجنب الطبيب، استقبلوني بابتسامة جذابة واهتمام لا يوصف، مزحن معي مع ضحكات مستمرة شعرت بإنسانيتي الكاملة معهن دون نقصان، كسوني بدلة العمليات ووضعوا في فمي حبة صغيرة بطعم الأناناس، ثم أحسست بعدها أن بلعومي قد فتح من الداخل وشعرت بدوار خفيف قبل فقدان الوعي. صحوت بعد حين مستلقياً على سريري في الغرفة والساعة أمامي تشير الى الثانية ظهراً، عرفت بعد ذلك من الممرضة قد تم إجراء ناظور وأخذ عينة من الورم في الرئتين. زارني الطبيب بعد فترة وحدثني باللغة الإنكليزية - بإمكانك مغادرة المستشفى غداً والرجوع بعد أسبوع لاستلام نتائج التحاليل.

توجهت للمستشفى برفقة زوجتي التي كانت تتلو آيات القران والأدعية قبل خروجنا من الشقة لحين وصولنا للمستشفى، وصلت للطبيب في الموعد المحدد سألني: هل تجيد اللغة الألمانية؟

- كلا. لكني أعرف معنى بعض الكلمات.
- أذن يتوجب عليك الاتصال بأحد الأصدقاء الألمان.

اتصلت بمترجمة صديقة أم رافل. تعمل في منظمة إنسانية تساعد اللاجئين فتحدثت مع الطبيب لفترة طويلة وبعد نهاية الاتصال قالت: هناك أمران سيئ والآخر جيد. الأول أنك مصاب بسرطان الرئتين! بعد سماع زوجتي بمرضي تهاوت على المقعد وأخذت تنوح وقمت بتهدئتها مع الطبيب. سألتها: وما القضية الجيدة أذن؟

- أن الورم في بداياته الأولية ويمكن السيطرة عليه بسهولة، وهناك طبيب متميز في المستشفى قمنا بتحويل أوراقك إليه يجب زيارته في الحال لتحديد موعد إجراء العملية مع إحضار مترجم على الفور.

اتصلت بصديق حلاق قريب من عمارتنا متجنس وطلبت مساعدته، كان الطبيب بانتظارنا وقال - أنها عملية بسيطة نحدد مكان الورم السرطاني ونزيله وينتهي الأمر.

- وبعدها هل سوف أتعالج بالجرع الكيمياوية؟

- أستطع تحديد ذلك بعد إجراء العملية.
- وكم نسبة نجاحها؟
- إن العملية بسيطة لأنك في ألمانيا وليس في العراق. هل تعلم أن بلدنا يتصدر العالم بالأجهزة المتطورة والكادر المتقدم ونحن متخصصون ومتميزون بعلاج السرطان والمفاصل مثلما بريطانيا مختصة بأمراض القلب، في برلين أربع جامعات تعمل بكامل مختبراتها على هذا المرض منذ سنوات.
- متى يتوجب إجراء العملية أذن؟
- غداً صباحاً لأن كل يوم تأخير يودي إلى انتشار الورم أكثر.
- لكنه طلب تأجيل العملية لشهر.
- وما سبب هذا التأجيل؟
- لديهم عادات وتقاليد بزيارة بعض الأضرحة قبل العملية وسوف يتوجه الى إيران ومشهد لأنه لا يستطع الذهاب الى العراق حالياً.
- ابتسم بابتسامه غريبة ثم هز رأسه بالموافقة.
- حسناً. موعد العملية سوف يكون في الساعة التاسعة من صباح يوم ١١/٢٨.
- شكراً لكم ولجهودكم الإنسانية.

كانت زوجتي تبكي طوال طريق عودتنا أردت تهدئتها فقلت: إيمانك كبير بالله وهذا ما كتبه لنا وعلينا الانصياع لأمره وكل ما يأتي منه جيد دائماً. متى موعد عمليتك؟

- عن أي عملية تتحدث! وضعك الصحي أهم من كل شيء الآن.

عملت فيزا الى إيران لزيارة الأمام الرضا ولقاء أقاربي فيها فلا يمكنني الذهاب إلى العراق فقد حذرني الأصدقاء من ذلك، ربما يقومون بمساءلتي بعد رجوعي واحتمال إلغاء إقامتي. شعرت بالخوف بعدما عرفت أن كلامهم منطقي في هذا الوقت الحرج الذي أنتظر فيه عملية خطرة ومهمة، ولأني لاجئ وقضية لجوئي هي بسبب عدم قدرتي العيش في بلدي فكيف يمكنني السفر إليه والعودة بشكل طبيعي!

اتجهت إلى إيران مع زوجتي فوصل أقاربي والتقيت بهم وبقينا معاً، قمنا بزيارة المراقد ووجدت مئات العراقيين هناك، امشي في شوارعها باندهاش شديد، كيف الملايين من شعبي البلدين يتزاورون كل عام بعد حرب طاحنة استمرت لسنوات! ثم اصطحبتهم لزيارة مناطق سياحية غاية الروعة والجمال في الشمال، وبعدها مررت بمشاعر مؤلمة ممزوجة بالبكاء ومواقف حزينة أثناء وداعهم.

عدت قبل الموعد بيومين وحضرت نفسي لإجراء العملية واستقبلتنا تمارا بدموع الفرح وقامت بإعداد وجبة غداء فاخرة "دولمة عراقية" ذكرتني بطعم تناول الطعام مع الأهل في

العراق، حضرت الشاي وجلست أحدثها عن سفرتنا وكل ما جرى فيها. بعد خروجها قالت سمية: هذه الفتاة مؤدبه وتحمل أخلاق عالية كلما رأيتها شعرت بالأمان، أريدها بقربي دائماً.

- كيف تكون بقربك دائماً؟
- أبحث عن زوجة لولدي علي.
- لقد فكرت في ذلك أيضاً.
- وما رأيك؟
- هي فتاة رائعة لكنها لم تزل على ذمة رجل!
- لقد طلبت الطلاق وسوف تنفصل عن زوجها قريباً لأنه لا يستحقها.
- سوف أكلمه بالموضوع والخير فيما اختاره الله.

اتفقت مع حجي علاء الحلاق على مرافقتي مع عائلتي لإتقانه الألمانية. وصل الطبيب وشرح عمليتي وما سوف يقوم به بالتفصيل برسم توضيحي على سبورة. رسم الرئة ومكان وجود الورم السرطاني ونسبة انتشاره بحجم أربعة سنتمتر وكيفية إزالته ووقت العملية قد يستمر لأربع ساعات وسوف يقوم مجبراً على إغلاق فتحة من فتحات التنفس، وتكون نسبة عجز الرئتين بحوالي ٤٠%.

ودعت الأهل وبت ليلتي وحيداً في المستشفى. في الساعة الثامنة والنصف صباحاً وصلت زوجتي وأولادي برفقتهم تمارا مع أحفادي قبلتهم ولعبت معهم، كنت في موقف مؤلم ومحرج للغاية شعرت بالغربة وفكرت بحالة عائلتي وما سوف يلاقونه من بعدي، كنت أضحك بوجوههم وأكابر على مرضي وأحترق بمشاعر جياشة من الداخل.

من أين جاءت الحياة ولماذا خلقنا الرب وما سبب وجودنا على هذه الأرض وسط هذا الكون الشاسع. بالرغم من أنه مجرد حطام صخور ومعادن وغازات سامة! كله جماد لا يشعر بوجوده ولا يختلف عن العدم. ما فائدة وجود مليارات المجرات التي تبتعد عن بعضها بملايين السنين الضوئية بلا ذرة حياة! هل أتينا إليه أم خلقنا فيه وأصبحنا جزء منه. ثم ما هو سر وجودنا؟ ربما يكمن في الأدراك فلولاه لما تساءلنا من الأساس. ما فائدة حياتنا على كوكب مثل حبة رمل في قاع محيط؟ منذ نشأتي وتخطر على ذهني بعد استيقاظي مثل هذه الأفكار التي تنتج أسئلة أعمق ولم أجد لها جواب.

حضر ولدي علي للمستشفى وقلت له - أرى أنك وحيدٌ بعد انفصالك عن زوجتك وأولادك بحاجة إلى رعاية دائمة.

- هذه قسمتي يا أبي. لكني لم أقصر عنهم بشيء.
- نعم بالتأكيد. لكنهم يحتاجون لحضن أم دافئ لم نستطع نحن الرجال تعويضهم عنه.

- جدتهم ترعاهم ولم تقصر معهم بشيء.
- وجدت لك فتاة لا تعوض.
- عرفتها.
- كيف؟
- لقد حدثتني أمي بموضوع تمارا.
- وما ردك؟
- كل ما يهمني الآن هو شفاؤك من المرض اللعين
- ولن أشفى منه إلا بعد رؤيتك مستقراً مع زوجتك وأطفالك.

وصل مضمد في التاسعة صباحاً ميزت شكله وعرفت لاحقاً بأنه عربي من فلسطين يحمل بيده كوب بلاستيك فيه حبة صغيرة، بلعتها في الحال ولبست صدرية العملية. أنزلني بسريري الخاص بمصعد الى الطابق الأرضي، دخلت الى غرفة الاستفاقة قبل صالة العمليات وكان هناك اثنان من المرضى على وشك الصحو من المخدر بقيت معهم في الغرفة ولم أشعر بشيء بعد ذلك، حتى استيقظت في غرفة العناية المركزة وساعة الحائط تشير الى الرابعة عصراً. حضر الى غرفتي دكتور "شنايدر" وبصحبته مترجم عراقي - كيف حالك وبماذا تشعر؟

- هو إحساس غريب لا أعرف ما أحس به بالضبط!
- كانت عملية صعبة استمرت لست ساعات حتى تمكنا من رفع الورم.
- هل يتوجب أخذ العلاج الكيمياوي؟
- كم أنت خائف منه! وضحك بصوت عالٍ.
- لأن أحد أقاربي في العراق كان لديه ورم سرطاني وكنت أصحبه لمركز الإشعاع وأرى مدى معاناته خلال العلاج.
- حتى لو كنت بحاجة إليه فلن يكون بهذه الدرجة من الألم والمعاناة التي تتوقعها؛ فالعلم قد تطور كثيراً وأنتم لا تعلمون شيئاً عنه في بلدكم.
- أين عائلتي؟
- هم بانتظارك في الخارج وسوف تتمكن من رؤيتهم لمدة قصيرة بعد تجهيز غرفة خاصة لكم.

أخذوني للطابق الثاني حيث الغرفة غيروا لباس العملية وغسلوا جسمي بماء دافي وكسوني ملابس جديدة، سألت الممرضة عن حال العملية وقالت: أنها ست وعشرون غرزة بمنطقة الظهر! سوف تحتاج وقت طويل قبل مواصلة حياتك بشكل طبيعي.

التقيت بالعائلة وأجبت على اتصالات عائلتي والأصدقاء في العراق، شعرت براحة كبيرة بعد خلاصي من كابوس المرض وعائلتي بخير يتحدثون ويضحكون بجانبي ثم أتى بعد ذهابهم بعض الأصدقاء لعيادتي ومعهم علاوي البصراوي. وسألتهم عن تكلفة العملية لو أجريتها على حسابي الخاص. وقال علاء الحلاق: لقد اطلعت على أوراقك وكانت تكلفة العملية فقط ثلاثين

ألف يورو أي حوالي أربعين ألف دولار! وأجور المبيت والأدوية والأكل ما يقارب مئة يورو يومياً.

- كل هذا مجاناً! لو كنت في العراق لكنت في قبر الآن.

سألني البصراوي قبل خروجه: ما هو السر في الحقيبة؟ من اليوم الذي أوصيتني بالحفاظ عليها وأنا أفكر فيه.

- هو معي أينما ذهبت. كان عندي صديق ايزيدي أيام الحرب منحني نسخة قديمة من كتاب يتوارثه الأجيال هو "مصحف رش" أو الكتاب الأسود بحسب اللغة الكردية وهو أحد الكتابين المقدسين للديانة الايزيدية.
- ولماذا تحمله معك دائماً؟
- أوصاني الاحتفاظ به أيام الحرب لأنه ينجيني من الموت كما كان يقول.
- وهل تعتقد بذلك؟
- هو ليس اعتقاد بل أشبه بالاعتياد. لا أعلم أرى أن فيه سراً غريباً.
- لكن أنا من كان يحمله ساعة السقوط في البحر!
- نعم. وربما كان سبب نجاتك ذلك اليوم.
- هل تحفظ شيئاً منه؟
- { ففي البداية خلق الله ستة آلهة من ذاته ومن نوره. وهكذا خلقتهم كانت تشبه إنسان إذا أوقد سراج من سراج آخر. فقال الله أنا خلقت السماء فليصعد واحد منكم وليخلق شيئاً فيها. فصعد الثاني وخلق الشمس. وصعد الثالث وخلق القمر. والرابع خلق الفلك. والخامس خلق القرغ أي نجمة الصبح. والسادس خلق الفردوس والسابع خلق جهنم. وبعد ذلك خلق آدم وحواء }
- أريد الاحتفاظ به بعد وفاتك.. ضحك الجميع بصوت عالٍ حتى جاء أحد الممرضين ومنعنا من ذلك.

خصصوا طبيبة رياضية بعد أيام تشرف على علاجي لممارسة رياضة المشي يومياً في الساعة التاسعة صباحاً والسادسة مساءً. تمسك بيدي ونتمشى في حدائق المشفى تراقب نبض القلب ومستوى ضغط الدم ونسبة الأوكسجين. فتاة جميلة شقراء بعيون زرقاء، طفولية الملامح، محبوبة للغاية، ترتدي بنطلون وفانيلا وقبعة حمراء وحذاء رياضي أبيض. في فترة التدريب كنا نتبادل بعض الكلمات الألمانية ومعانيها العربية وكنت أتمنى أن لا ينتهِ الوقت بصحبتها.

في مساء أحد الأيام بعد نهاية حصة تدريب المشي وصعودنا إلى الغرفة قالت: أنه اليوم الأخير لك في المستشفى كيف حالك الآن.

- وضعي الصحي جيد لكني بحاجه للاستمرار برياضة المشي برفقتك لأن هذا مهم لحالتي النفسية.

- كنت أتمنى ذلك لكن وقتي المحدد قد انتهى معك! وضعت قبلة رقيقة على خدي وودعتني بالسلامة مع ابتسامة.

أخبرني المدير بإمكاني المغادرة الآن لكن يتوجب العودة إلى المستشفى بعد أسبوع بصحبة مترجم لعرض أوراقي على البروفيسور العالمي "شمت" كي يتعرف على وضعي الصحي وما يتوجب عليّ فعله في الأيام القادمة. خرجت من المستشفى وعدت للشقة سيراً على الأقدام لأنها قريبة من مكان سكني.

كانت تمارا جالسة على الأريكة معنا في الشقة نشاهد قنوات التلفاز ويدور في ذهني كيف تعرفت على زوجها وكيف وصلت الى برلين فسألتها وقالت: تعرفت على نجاح عن طريق ابن عمه الذي كان صديقي في الفيس بوك نتحاور في أمور مختلفة، حتى سألني ذات يوم لماذا لم تتزوجِ لحد الآن وأنت فتاة واعية ومثقفة؟

- لأني ابحث عن رجل يفهمني تكون المرأة مكملة لشخصيته ويكون الزوجان متعاونين ومتفاهمين بالحب؛ وليست زوجة من أجل أعمال البيت وتربية الأطفال فقط!
- هل تحبين السفر للخارج؟
- بالتأكيد للخلاص من هذا القيد الذي يقيد رقبة المرأة الشرقية، فأوجاع النساء هنا لا تحتمل.
- ابن عمي ساكن في ألمانيا وهو متزوج لكنه منفصل عن زوجته ويبحث عن امرأة مثقفة من العراق، سوف أعرفك عليه.

تعرفت عليه وتحدثنا طويلاً، كان إنسان منفتح قارئ لكتب علم نفس ويعرف التعامل مع المرأة وغير معقد يدعو أن تكون حرة في ممارسة هواياتها ويحب أن تكون ناجحة في دراستها وتتميز في عملها وتثبت ذاتها. فوجدت تقارب كبير بما نحمل من أفكار. استمرت علاقتنا لشهور نتواصل عن طريق برامج التواصل الاجتماعي حتى اعتقدت بأني قد عرفته جيداً قال بعدها: لقد عرف بعضنا الآخر وأريد التقدم لخطبتك من أهلك. أصر أبي بعد أن أخبرته على ضرورة مجيء نجاح للعراق للقائه والتعرف عليه فحضر بالفعل، تحدث عن حياته وإقامته ومعدل دخله وشقته حتى حصلت الموافقة وتم عقد قراننا، جلسنا معاً وتحدثنا كثيراُ كان مثقف ومؤدب بقي لأسبوعين في النجف حتى أكملنا إجراءات الزواج في المحكمة ثم عاد وتبعته بعد ذلك وحصل ما حصل.

- أريد الاطمئنان على مستقبل أحفادي ووضعهم في أيادي أمينة، ووجدتكِ فتاة رائعة أريد موافقتك على الزواج من علي.
- يشرفني الانتساب لعائلتكم الطيبة لكني على ذمة رجل يرفض طلاقي!
- لو تمسكتِ على طلب الطلاق لن يتمكن أحد من منعك.
- لكن أهلي قد خيروني بين الرجوع إليه أو إلى العراق.
- حسناً بعض الأمور يكون الزمن كفيل بحلها.

حان موعد الذهاب الى المستشفى فاتصلت بالحاج أمير صديقي القديم واصطحبني بسيارته الخاصة. التقينا بالطبيب وتحدث مع المترجم بتواضع كبير: خلال العملية رأيت بالكاميرا بعض النقاط السود على الكبد لكني لم أستطع سحب عينة لأنه تحت الحجاب الحاجز. لذلك علينا إجراء فحوصات سريعة وبسيطة اليوم كي نطمئن على حالتك الصحية.

أجريت الفحوصات اللازمة للدم ووصلته النتائج بعد مدة وقال: ثمان خلايا سرطانية منتشرة على الكبد لو كانت بمنطقة واحدة لأزلتها لأن الكبد ينمو بشكل طبيعي بعد قطع جزءً منه.

- وما العمل؟
- بالعلاج الكيمياوي؛ ولا مفر منه هذه المرة.
- هذا الذي كنت أخشاه. لأني أهاب جرعة الكيمياوي أكثر من المرض نفسه.
- لقد أجلت إبلاغك بمرضك لأسبوع وطول هذا الوقت كنا في اجتماعات مستمرة في جامعه برلين بخصوص حالتك المرضية تحديداً. فبعد إزالة الورم من الرئتين أصبح من الصعب علاجك، لكن من حسن حظك قد وصلت عالمة قبل يومين من مؤتمر في أميركا واتفقنا على عرض أوراق حالتك عليها بشكل مباشر.
- لكني أعاني من ألم شديد في الصدر لا أتمكن من النوم معه.
- سوف يستمر الوجع لفترة قصيرة بسبب إزالة جزء من الرئتين مع أوردة وشرايين لكن حالتك الصحية جيدة ووضعك مستقر لا يتوجب الخوف والقلق.

عدت للطبيب بعد مرور عشرين يوماً حسب الموعد المحدد، وأخبرني بأنه قد تم إحالة أوراقي لمركز علاج الأورام السرطانية وهو أكبرها في أوربا، وقد حددوا موعد للقائي ومتابعة حالتي بشكل يومي.

وصلت للمركز ومن خلال الاستعلامات وأوصلوني للطبيبة سوزان المختصة بعلاجي فكلمتني عن طريق مترجم: لن يكون علاجه جرع تسبب الغثيان والتقيؤ وتساقط الشعر بل مجرد حبة صغيرة يأخذها قبل الفطور يومياً في المنزل. أخذت العلاج وبعد مرور عشرة أيام ظهر بساقي في مكان إصابتي ورم غريب، فاتصل ولدي بالإسعاف وأخذوني للمستشفى التي كنت أتعالج فيه. بعد الوصول صوروا منطقة الورم بالأشعة ثم أخبرني الطبيب بوجوب إجراء عملية في الحال وسوف يتم نقلي الآن الى مستشفى العظام. وصلت في الساعة العاشرة ليلاً ودخلت لصالة العمليات في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، صحوت في الساعة السادسة صباحاً وشاهدت ساقي ملفوفة من أثر العملية.. فعاودت النوم.

أيقظني رجل في العاشرة صباحاً وهو يدفع عربة تحتوي أدوات تضميد وعلاجات مختلفة، قاس ضغط الدم وسألته: هل أنت مضمد؟

- كلا. أنا الطبيب الذي أجري لك العملية مساءً.. كان شاب بسيط ومتواضع لا تشعر بأنه طبيب جراح متميز.

بقيت لمدة عشرة أيام أتناول العلاج ولم ينزل الورم فدخلت صالة العمليات مرةً أخرى وبخلال شهر واحد أجريت ثلاث عمليات في المستشفى، مع تسعين جرعة من المضاد الحيوي حتى انتهى التهاب ساقي قبل أن أعود للبيت وليتني لم أعد.

زارتني تمارا للشقة وكانت على غير عادتها، حزينة كأنها تحمل هموم الناس على كتفها، جسدها نحيل عيناها جاحظتان ووجهها شاحب. سلمت بصوت أبح وجلست بقربي ثم أخرجت من جيبها ظرف – عمي العزيز هذه أمانه أسلمها لكَ وأرجو ألا تفتحها قبل الأوان.

- ماذا بكِ يا ابنتي. لماذا وجهك عبوس وحزين؛ هل تعانين من شيء؟
- سوف تعرف في وقتها.. وداعاً.

بالقرب من شقتي كانت منظمة إنسانية تساعد اللاجئين تسمى mdk وظيفتها تأخذ حصة الضمان الصحي المخصصة للاجئين وتوزعه على المستشفيات بعد إجراء العمليات، اتصلت بهم وأخبرتهم بإجراء العملية فسجلوا عنواني الكامل وزارتني سيدة للشقة بعد مرور ساعة. جلست بجانبي اطلعت على الأوراق وقالت: يجب تعيين مساعد لك يقوم بواجباتك وبما إن زوجتك هي ربة بيت سوف نقوم بتخصيص راتب لها بدل من إحضار ممرض أو ممرضة تقوم برعايتك. ثم كتبت تقرير فوري للمنظمة عن طريق الموبايل يتضمن حالتي المرضية وضرورة تقديم المساعدة.

وصلني بعد أسبوع موعد محدد لموظف يحضر للشقة يقوم بمتابعة حالتي الصحية قبل صرف الأموال. وصلت سيدة واطلعت على أوراقي وإجراء العمليات ثم سجلت كل شيء وقالت: أنتظر الرد بعد فترة قصيرة عن طريق البريد الإلكتروني. وصلني وجاء فيه "تم صرف مبلغ ثلاثمائة وسته عشر يورو للرعاية الصحية، وسبعمئة وعشرون يورو مخصصة للمنظفات والمعقمات لمدة عام، ويكون اتصالنا مباشر بالمستشفى لتقييم وضعك الصحي بعد هذه المدة".

تحسنت حالتي كثيراً وتم إيقاف صرف مبلغ الرعاية الصحية وبقي ستون يورو مخصصات منظفات شهرياً، عادت الموظفة بعد مدة - لو ترغب باختيار شركة تقوم بتنظيف وتعقيم الشقة كل أسبوعين ونحن نقوم بدفع الأجور لهم.

- لا احتاج لأن زوجتي تقوم بذلك أسبوعياً.

عاد الالتهاب في ساقي من جديد فحولتني دكتورة ميثاق الى المستشفى اليهودي للعلاج، خصصوا لي غرفة مع مريض تعرفت عليه كان مقيماً لبنانياً من الجنوب يدعى سيد هاشم قد أجريت لساقه عملية، تحدثنا عن هذا البلد واللجوء والمستشفيات، سألته - ما سبب عمليتك؟

- أعاني من ورم سرطاني في الرئتين وقد أصبت بكسر في ساقي فأجرى العملية الطبيب سليم حفني رئيس قسم جراحة العظام في المستشفى.
- اسمه عربي!
- نعم أنه فلسطيني من غزة.
- كيف يكون طبيب فلسطيني رئيس قسم مستشفى يهودي!
- لأنك في ألمانيا يا صديقي.

دخل علينا مجموعه من الأطباء خلال حديثنا فعرفت الطبيب الفلسطيني بعد أن حدثني بالألماني قلت له: أنا عربي مثلك.

- أهلا ومرحباً. أنا أعرف فقد تابعت أوراقك ووضعك الصحي جيد لو تطلب الأمر سوف أقوم بتبديل مفصل الركبة، لكن لحد الآن العظم يستجيب للعلاج.

أنزلوني لصاله العمليات في الساعة الثانية عشر من ظهيرة اليوم التالي وجدت الطبيب بانتظاري طمأنني على وضعي وأخبرني بأنها عملية بسيطة تنتهي بأقل من ساعتين. زارني في اليوم التالي فتح الضماد ثم أخذ بيدي وأجبرني على المشي وغادرت المشفى بعد يومين.

عدت إليه بعد أسبوع للمراجعة ـ حالتك في تحسن.

- هل سنجري عملية تبديل الرُكبة؟
- أنها عملية بسيطة ويمكنني إجراؤها غداً لكن يتوجب عليك البقاء بعدها في الفراش لمدة لا تقل عن سبعة أشهر!
- هذا صعب جداً. عليّ الذهاب للمستشفى باستمرار للمتابعة واستلام العلاج.
- حسناً أذن سوف نستمر بالعلاج لحين شفائك التام.

بعد المتابعة المستمرة أخبرني بأن الورم السرطاني نزل الى عظم الورك لذلك عالجوه بالإشعاع لمدة أثني عشر جلسة حتى أوقفوه ومنعوا انتشاره.

في الشهر الثامن بعد دورة فحوصات شاملة وجدوا أن هناك بعض الأحشاء الداخلية في الرئة ملتهبة بسبب برودة الجو. فأحالتني الطبيبة ميثاق لمستشفى "شاريتيه" التي تعالج بها المام جلال وهي مختصة بأمراض الرئتين، حددت موعد بالساعة واسم الطبيب ورقم الطابق وأحالت التحاليل لتشخيص وضعي الصحي.

بعد خروجي من الشقة صباحاً للتنزه وشراء بعض الحاجيات، في مدخل المترو شاهدت سيارات نجدة والكثير من رجال الشرطة ورجال يحملون سريراً متحركاً ممدد عليه جسد إنسان مغطى بالكامل ثم انطلقت بسرعة. نزلت للأسفل بعد وصولي لقطع التذكرة كان شريط اصفر يحيط بالمكان منعي الشرطي من تجاوزه. سألته: ماذا هناك ما الذي يحصل؟

- فتاة قد ألقت بنفسها أمام القطار.
- يا إلهي ماذا تقول وهل هي على قيد الحياة؟
- كلا. لقد ماتت في الحال.

ركبت سيارة أجرة وعدت للشقة على عجل، طرقت باب شقة تمارا بقوة ولم تفتح، هرولت إلى شقتي وسألت زوجتي بعد فتحها الباب: هل جاءت الفتاة؟

- هذا الصباح الوحيد الذي لم تأتِ فيه لحد الآن؛ ربما مشغولة في عمل ما.
- يا ربي.. أتمنى ألا يكون حدسي في مكانه.

عدت للشارع واستأجرت سيارة إلى المستشفى، وصلت وسألت عنها حتى عرفت بأنها في ثلاجة الموتى!

غلقت باب الغرفة، فتحت الدُرج وجلست أقرأ الرسالة "عمي العزيز عندما تقرأ هذه الكلمات سوف أكون في عالم آخر عساه أن يكون أجمل وارحم من الذي نعيش فيه. لقد سئمت الحياة فقد عشت معاناة بعد ولادتي حتى طفولتي عندما كان الآباء ينتظرون أبناءهم ليستقبلوهم بالأحضان والقبلات وأنا أبكي طوال طريق عودتي للبيت. كبِرت فضاقت على معصمي وعنقي الأغلال وخنقتني. وجدت الجميع قد اعتاد عليها وأصبحت جزء من شخصيته. حاولت كسرها لكنها مصنوعة من خيوط حريرية حاولت حرقها وخفت أن تحرقني. ربما الخطأ مني لكني لم أحتمل فقررت الهرب. تخلصت من قيد رقبتي وتكبلت بأصفاد على يدّي وقدميّ، حاولت نزعها حتى أدمتني ولم أستطع. قررت الانتحار قبل لقائي بك، فأصبحت بالنسبة لي مثل شمعة تنير الطريق. منذ رؤيتك شعرت بذلك الإحساس الغريب وكأني أعرفك منذ زمن بعيد ووجدتك بعد بحث دام سنين. ربما لأنك بعمر والدي الذي لم اره. فكنت احلم بك واقفاً تنتظرني على باب المدرسة، وأحلم بك أحيانا وأنت بجانبي ربما وجدتك ذلك الرجل الذي كنت انتظره. أكيد أنك متفاجئ الآن بل أصبت بالصدمة وتتساءل ما الذي تكتبه هذه المجنونة؟ وأنا مثلك أتساءل وأبحث عن الإجابة منذ رؤيتك ولم أجدها. لماذا وكيف حتى تعبت. كل شيء شائك ومبعثر في حياتي. كل هدف وصلت إليه وجدته عبارة عن وهم بل كذبة كبيرة، فقررت الرحيل بصمت، لأن وجودي مثل عدمه لا يضيف شيء لهذه الحياة.. لن أقول وداعاً بل إلى لقاء ربما يكون في الحياة الأخرى".

التقى بي الطبيب وعرفني بحالتي بعد استلامه التقارير وسجل موعد بعد أسبوع لمتابعتي ومعرفة النتيجة، ذهبت بالوقت المحدد وأخبرني بأن هذه النقاط السود على الكبد هي بؤر صغيرة لبدايات انتشار السرطان فيه ومن الممكن السيطرة عليها بالعلاج، سوف أقوم بتغيير نوع الحبوب التي تأخذها بنوع آخر أفضل وأقوى على المرض وبدون أعراض جانبية مع إجراء فحوصات مستمرة كل ثلاثة أشهر.

بعد اطلاع الدكتورة ميثاق على نوع الحبوب - أنها غالية جداً لأنه اختراع جديد ولن نستطع توفيرها لك مجاناً لذلك يجب طلب موافقة على صرف قيمة الدواء. ووصلني بريد بعد مدة من المستشفى مكتوبٌ فيه "لقد طالبنا شركة التأمين بتوفير قيمة العلاج، لذا توجب عليك الحضور يوم غد لأجراء الفحوصات والتحاليل اللازمة قبل حصول الموافقة على صرفه".

ها قد لاحت مستشفى شاريتيه أخيراً. الطريق إلى شاريتيه أصبح طويلاً كأني مشيت ثلاثين كيلو متراً وليس ثلاثة. تلك البناية البيضاء الشاهقة بشبابيكها الفضية اللامعة، حدائق خضراء واسعة تحيط به من كل جانب. صرح علمي كبير حسّن حياة ملايين الناس على مر العصور، لكن لماذا لم يكن مثله هناك في بغداد، في لبنان، في المغرب؟ هل تنقصنا الأموال. العقول. الخبرة. القدرة؟ بلدان تفيض بخيرات لم يكن للحكومات المتعاقبة دور في اكتشافها ولا استخراجها ولا تصديرها تتحول الى أموال وأرصدة في بلدان أجنبية يتوارثها أبناء الحكام بالتتابع. هل كل ما يجري هو عفوي لأننا نسبح في بحر من الفوضى؟ هل سببها أننا أقوام بدوية لا تعتمد التخطيط للمستقبل؟ لكن هناك الكثير من شعوب العالم أصولهم بدوية كانت تعتمد على الغزو والقتل بالسيف والسبي لتوفير لقمة العيش، قد تمكنت من الاحتكاك بالغرب والاستفادة من حضارتها للنهوض بشعوب بلدانها! ربما بسبب عدم وجود تخطيط استراتيجي للفرد والمجتمع بشكل عام! إم هو مخطط له من عدو وهمي لا نعلمه كما علمتنا حكوماتنا في المدارس! لكي نعلق الأمر بمؤامرة خارجية وينتهي أمر البحث عن السبب وعلاجه. لكنه عذر قبيح يقنع الحاكم والمحكوم ويفوضان أمرهما الى الله ويبقى الحال بلا حل. ربما بسبب دراستنا للتاريخ نفسه وتقديس أصحاب السيف لا أصحاب الكتب والإنجازات وترك أو تجاوز حضارتنا العريقة الموغلة في القِدم. ونحن ضائعين نواجه الموت كل لحظة في طريق لا نعرف نهايته عرضة للسرقة والابتزاز والنصب والاحتيال والقتل. مثل جيفة في غابة وحوش كاسرة يلتهم منها كل من يمر بقربها. مشردين بين شعوب بلدان العالم التي تعطف علينا بإطعامنا لقمة خبز. مثل ذئاب تائهة في صحراء لا يلمها مأوى تطاردنا الضباع والثعالب.

لكن كيف تسمح بلدان أوربا باستقبال ملايين اللاجئين من بلداننا؟ جميعهم لا يتقنون لغات المجتمعات الأوربية ولا الإنكليزية وليس لهم مؤهلات علمية أو فنية بلا خبرات في الأعمال التكنلوجية الحديثة تمكنهم من الاندماج بالمجتمع. متخلفين وعاطلين عن العمل. هم عالة على هذا المجتمع الاقتصادي الذي يتطور بقفزات عريضة. لقد رأيت بعينّي كيف تحولت مراكز اللاجئين إلى بؤر لعصابات السرقة والسطو المسلح وتجارة المخدرات والدعارة وأخذت تصدرها للشارع الألماني. كلما جلست لوحدي فكرت لماذا أنفقوا على حالتي مئات الاف الدولارات! هل من أجل حصولهم على أيدي عاملة رخيصة؟ لكن كيف وأنا عاجز عن العمل بأي وظيفة بعد المرض! لكن لماذا هذا التفكير السيئ عن شعوب اقتسمت لقمة الخبز مع مهاجرين غير شرعيين. لماذا البحث في نتائج الأسباب وعدم البحث عن سبب إجبارنا على الهجرة من الأساس؟

الوقت الآن الحادية عشرة وسبعة وأربعون دقيقة وها قد سبقني هاشم وهو يجلس على المصطبة مقابل بوابتها كعادته.

- كيف حالك يا صديقي العجوز تبدو بصحة جيدة.
- أهلا يا أبا علي.. لا بأس.
- لقد وصلتني الرسالة نفسها التي أخبرتني بأنهم قد بعثوها لك.
- هل تعتقد انهم سوف يوافقون على صرف الدواء لنا؟ يقولون إن ثمنه غالٍ جداً وأنا أشعر بقلق شديد منذ يوم أمس.
- إذا فعلوا ذلك فقد منحونا المزيد من أيام العمر؛ وإذا رفضوا فهم قد أطالوا بأعمارنا أكثر مما لو كنا في بلداننا.
- نعم.. أشعر أن الله قد كتب لي حياة جديدة بعد عبوري البحر.
- وأحس بأنه قد كتب لي عمر جديد بعد أيام الحرب.

مسكت يده المرتعشة وأنهضته من مكانه بصعوبة. مشيت جنبه على مهل لحين وصولنا بوابة المستشفى، فُتحت ودخلنا معاً.

..... تمت

الثلاثاء ٢٠٢١/٣/٣٠